صور من النقد السياسيّ في أدب العصر المملوكيّ الأوّل: موقف السلطة من المثقّف أنموذجاً

د. رائد عبدالرحيم

ملخص

عانت طائفة من المثقفين في العصر المملوكي الأول الظلم والإهمال والازدراء، وحوربوا في أرزاقهم وقوت يومهم، وسجنوا، وعذّبوا، وقتلوا، وما ذلك إلا لأنهم لم يقفوا إلى جانب السلطة الحاكمة، يرون ما ترى، ويقولون ما تقول، ولم يتملقوا، ومن هؤلاء قسم من أدباء العصر، الذين أوصدت أبواب الحكام في وجوههم، ولم يجدوا من يستمع إلى مديحهم وإطرائهم، فذاقوا مرارة الفقر، والبؤس، والحرمان، والذلّ، والاستبعاد. وقد عبّر الأدب في العصر المملوكي الأول عن معاناة هؤلاء جميعاً، وانتقدوا سياسة أرباب الدولة يومذاك تجاههم، وقد استعانوا بأساليب مختلفة في التعبير عن ذلك. وعلى الرغم من أهمية الموضوع، لا توجد دراسة علمية مستقلة شاملة تناولته من جوانبه المختلفة. ومن هنا جاء هذا البحث ليقف على الأدب الذي انتقد ساسة العصر المملوكي الأول وموقفهم من المثقف، وليكشف عن مضامينه، ووسائل التعبير عنها. واتّبع البحث المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، وترجم للشخصيات المغمورة فيه، أما المعروفة، فاستثناها من الترجمة. واتّكأ على بعض حوادث التاريخ خدمة للنص الأدبي، وقُسم إلى قسمين:

الأول: تناول الأدب الذي انتقد السلطة الحاكمة وسياستها تجاه المثقف العالم: الفقيه، والمحدث، والمفسّر....

الثاني: وقف على الأدب الذي انتقد موقف أرباب الحكم من الأدب والأديب.

مقدمة

يمتد العصر المملوكي الأول من سنة ٦٤٨هـ-٧٨٤هـ، وخلال هذه الحقبة الزمنية حكم الأمة العربية والإسلامية في مصر والشام طبقة عسكرية أرستقراطية، همّها في المقام الأول مصالحها الشخصية، ورغباتها، فعانى قسم كبير من الشعب العربي الفقر والحرمان، وتحمّل القهر والعنصرية. ومن هؤلاء المثقفون، الذين انقسموا في هذا العصر إلى فئة سارت في ركب أرباب الحكم والسياسة، وآثرت إطاعة الأوامر، ولو كان فيه ذلّها، وإراقة ماء وجهها، وكان من هذه الطائفة كتاب وكتاب شعراء، اشتغلوا في دواوين الدولة المملوكية، وانخرطوا في مفاسدها، فعاشوا في رغد العيش، فصاروا أصحاب الأملاك والأطيان والوجاهة، ولم تكن الدولة لتغدق عليهم الأموال إلاّ لحاجتها لهم، فأقلامهم لسان الأتراك غير العربي في مخاطبة العرب، وتحصيل الضرائب[1]. وفئة ثانية من المثقفين وتشمل العلماء والشعراء، ابتعدت عن بلاط الحكم المملوكي، ورفضت تجبّرها وظلمها، وتجاوزاتها المخلّة بالدين والأخلاق، فعدوا الانخراط في مفاسدها مشاركة فيها، وهو مما لا يليق بفقيه، أو محدّث، أو مفسّر، ولم يكتفوا بذلك، بل وقفوا ينتقدونها، ويهاجمونها، ويؤلّبون الشعب عليها، ولهذا حاربهم ساسة البلاط المملوكي، وضيّقوا عليهم في أرزاقهم، وسخروا منهم، واحتقروهم، وأهملوهم، ووصل الأمر بهم حدّ سجنهم وتعذيبهم ونفيهم وقتلهم. أما الشعراء، وبخاصة الذين لم ينخرطوا في ديوان الإنشاء، فهؤلاء كانوا عبئاً على رجال الدولة، لأنّه لا فائدة لهم إلا في شعر المديح،

١. انظر عن مظالم المماليك وحاشيتهم: كتاب اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، وفيه صورة وافيه عن الظلم الذي عاشه الناس في حقبة الناصر محمد بن قلاوون. وكتاب تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ويقدّم صورة عن مظالم أرباب العصر المملوكي بصورة عامة. وانظر ثورة البوصيري الشعرية على كتاب الدواوين في عصره ومفاسدهم ومظالمهم، كتاب أحمد عبدالمجيد خليفة، فن السخرية والفكاهة عند شعراء مصر المملوكية، ص١١١ وما بعدها.

وهذا لا يفهمه الأتراك أو معظمهم، وسيكلّفهم مبالغ من المال لا ضرورة للتنازل عنها وإنفاقها.

ولهذا قاسى هؤلاء شأنهم شأن العلماء المنتقدين للسلطة الفقر والحرمان، وعانوا الإهمال والذل، وهم يتسوّلون سادة عصرهم. وقد عبّر أدب تلك الحقبة الزمنية شعره ونثره عن حال هذه الفئة المهملة من العلماء والأدباء، وانتقد موقف السلطة الحاكمة منهم، فنوّعوا في مضامينهم وأساليبهم، فكان في كتب التاريخ والتراجم والأدب ودواوين الشعراء مادة غزيرة في هذا الموضوع، الذي على الرغم من أهميته لم يحظ بدراسة علمية مستقلة شاملة تتناوله من جوانبه المختلفة. ومن هنا جاء هذا البحث ليرصد الأدب الذي انتقد أرباب العصر المملوكي الأول، وموقفهم من المثقف يومذاك، وليقف على مضامينه، وطرق التعبير عنها.

اتّبع البحث المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، فقد استقرأ الأدب من مظانه المختلفة، ثم حلّل مادته، وأطّر مضامينها المختلفة وفق عناوين تتوزع عليها هذه المضامين، ووقف على أساليب الشعراء في نقدهم سياسة المماليك من المثقف. وبدا البحث في قسمين:

القسم الأول: يتناول الأدب الذي انتقد سياسة أرباب الدولة المملوكية من المثقف العالم: الفقيه، والمحدث، والمفسر.

القسم الثاني: يقف على الأدب الذي انتقد أرباب الدولة المملوكية، وموقفهم من الأدباء وأدبهم يومذاك.

وترجم البحث للشخصيات المغمورة الواردة فيه. أما تلك المشهورة، التي يعرفها كلّ مختص بأدب العصر المملوكي، فلم يترجم لها.

وقد يلحظ القارئ الكريم تكراراً طفيفاً بين القسمين، ولكن لهذا الفصل بين العالم والأديب ما يبرره، وهو غزارة الأدب الذي انتقد موقف السلطة المملوكية من الأدب والأديب، وتميّز هذا الأدب بميزات مضمونية وفنية خاصة به.

ويقصد بالسلطة في هذه الدراسة أرباب الحكم والإدارة في الدولة المملوكية، وهم: السلاطين، والأمراء، والقادة، والوزراء، وكتاب الدواوين، وموظفو الدولة الآخرون، فهؤلاء هم أصحاب الثراء والوجاهة، وكانت سهام النقد موجهة إليهم في أدب الحقبة المملوكية.

هناك بعض الدراسات السابقة التي تناولت شذرات من هذا الموضوع، وأفاد منها الباحث في دراسته، وهي:

– أدب الصنّاع وأرباب الحرف حتى القرن العاشر الهجري، لمحمود سالم محمد، وهو كتاب مهم تناول فيه المؤلّف شعر أرباب الحرف واتجاهاته، فوقف على نماذج من أشعارهم التي تصوّر حال الشاعر البائسة في العصر المملوكي الأول، وموقف السلطة منه.

– شعر أبي الحسين الجزار دراسة فنية تحليلية، لمحمود الجريدلي، درس فيه الباحث الخصائص الفنية لشعر الجزار، ومنه شعره الاجتماعي، الذي شكا فيه حاله، وموقف أرباب الحكم في عصره من الأدب والأديب.

– فن الفكاهة والسخرية عند شعراء مصر المملوكية، لأحمد عبدالمجيد خليفة، وقف فيه المؤلف على بواعث الفكاهة والسخرية في ذلك العصر، ثم صور الفكاهة والسخرية يومذاك، ومنها السخرية السياسية، ووقف عند بعض أعلامها، وهم أبو الحسين الجزار، وشمس الدين بن دانيال الكحال، وشرف الدين البوصيري.

– الرؤية الاجتماعية في أدب ابن دانيال، لشفيق محمد الرقب، وقف فيه على ظواهر من شعر ابن دانيال الاجتماعية، ومنها النّقد الاجتماعي والسياسي، المتضمن نقد الساسة وعلاقتهم بالشعراء.

– فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول، لرائد عبدالرحيم، تناول فيه اتجاهات شعر الرثاء في ذلك العصر، ومنها رثاء العلماء والأدباء، فوقف على بعض الأشعار التي انتقدت موقف السلطة المملوكية من طائفة من علماء العصر، وبخاصة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية.

– صورة المجتمع في الشعر المملوكي، هناء علي سبيناتي، رسالة دكتوراه، تناولت فيها الباحثة جوانب من النقد السياسي في الشعر المملوكي، ومنها موقف السلطة المملوكية من المثقف.

مهاد وتأسيس:

انقسم المثقفون في العصر المملوكيّ الأوّل إلى أقسام ومشارب وأهواء متعددة، فمنهم من كان تبعاً للسلطة الحاكمة، يلهث وراءها، وينطق بلسانها، لا همَّ له سوى مصالحه الشخصية، وإرضاء أسياده من أرباب الدول، وهؤلاء كانت الغاية عندهم تبرّر الوسيلة. وقد عبّر عمر البزاز في كتابه "الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية" عن حال هؤلاء في معرض المقارنة التي أجراها بينهم وبين شيخه ومعاصره ابن تيمية، وحين رصد مواقفهم من الشيخ، وبغضهم له، حين رأوا سلوكه في الحياة والعلم يخالف أهدافهم ويناقضها، فقال: "بخلاف غيره من علماء الدنيا، مختاريها وطالبيها والساعين لتحصيلها، فإنهم لمّا اختاروا ملاذها وزينتها ورئاستها، انسدّت عليهم غالباً طرق الرّشاد، فوقعوا في شركها، يخبطون خبط عشواء، ويحطبونها كحاطب ليل، لا يبالون ما يأكلون ولا ما يلبسون، ولا ما يتأوّلون ما يحصّل لهم أغراضهم الدنيئة، ومقاصدهم الخبيثة الخسيسة، فهم متعاضدون على طلبها،

يتحاسدون بسببها، أجسامهم مليئة، وقلوبهم من غيرها فارغة.."[١]، "ولمّا رأوا هذا الإمام عالم الآخرة، تاركاً لما هم عليه من تحصيل الحُطام، من الشبه الحرام، رافضاً الفضل المباح فضلاً عن الحرام، تحقّقوا أنّ أحواله تفضح أحوالهم، وتُوضح خفيَّ أفعالهم، وأخذتهم الغيرة النفسانية على صفاتهم الشيطانية، المباينة لصفاته الروحانيّة، فحرصوا على الفتك به أين ما وجدوه"[٢]. وتحدث تاج الدين السبكي في كتابه القيّم "معيد النعم ومبيد النقم" عن هذه الفئة من علماء عصره، وحذّرهم عاقبة الطريق الذي يسلكونه دنياً وآخرة، وأثره في علمهم وسلوكهم، فقال: "فمن هؤلاء من يطلب العلوّ في الدنيا والتردد إلى أبواب السلاطين والأمراء....وحبّ المناصب والجاه، فيؤدي إلى أنّ قلبه يُظلم بهذه الأكدار، ويزول صفاؤه بهذه الأمور التي تُظلم القلوب، وتُبعد عن علاّم الغيوب، إلى أن يشتغل بهم وبها عن الازدياد في العلم، فكم رأينا فقيهاً تردّد إلى أبواب الملوك فذهب فقهه، ونسي ما كان يعلمه"[٣].

وقسم آخر انكفأ على نفسه، مؤثراً السلامة. وصنف ثالث رفض بعض سياسات السلطة الحاكمة، فواجهوها بالحكمة والموعظة الحسنة تارة، وتارة أخرى بالمواجهة، فهذا النّفر من المثقّفين شكّلوا خطراً على أرباب الحكم والسياسة في ذلك العصر، فأنزلوا بهم العقوبات المختلفة، مثل التوبيخ والتقريع، والنفي، والسجن، والتعذيب، ووصل الأمر حدّ القتل.

ومن أمثلة هؤلاء العلماء الذين رفضوا التقرّب إلى السلطة المملوكية العز ابن عبد السلام، ومحيي الدين النووي، وتقيّ الدين بن تيمية[٤]، وتقي الدين بن دقيق

---

١. البزار، الأعلام العليّة، ص٤٣.

٢. المصدر نفسه، ٤٤.

٣. السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص٥٧-٥٨.

٤. سيأتي الحديث عن دور االعز وابن تيمية في مواجهة السلطة في عصرهم، وما تعرّضوا له لاحقاً.

العيد، وزين الدين ابن الوردي. وقد كان لهؤلاء نصوص أدبية شعرية ونثرية انتقدوا فيها السلطة الحاكمة المملوكية، وموقفها من الطبقة المثقفة يومذاك.

أما الشيخ محيي الدين النووي، فقد قال عنه تلميذه ابن العطار في السيرة التي كتبها لشيخه: "وكان مواجهاً للملوك والجبابرة بالإنكار، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة، كتب الرسائل، وتوصّل إلى إبلاغها"[١]، "وله رسائل كثيرة وكليات تتعلّق بالمسلمين وجزئيات..، وله كلام طويل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مواجهاً بها أصحاب الرّتب العاليات"[٢]. ومن هذه الرسائل "رسالة تتعلّق بالمكوس[٣]"، و"رسالة تتعلّق بالأمراء والخيل"، ورسالة كتبها "بسبب الفقهاء لمّا رسم بأن الفقيه لا يكون مُنزلاً في أكثر من مدرسة واحدة"[٤]، وأورد له تلميذه رسالتين ينتقد فيهما سياسة الظاهر بيبرس بعد أن فرض الضرائب الباهظة على المسلمين في دمشق في سنة مجدبة، فأراد أن يحتاط على بساتينهم مصدر رزقهم[٥]، ولعلّ هذه الحادثة كانت سنة٦٦٦هـ، إذ أصاب الصقيع بساتين دمشق "وعدمت الثمار جملة كافية"[٦]، وعلى إثر هذه الحادثة أمر بيبرس بنفيه من دمشق، ثم عودته فيما بعد[٧]. ووقف ابن دقيق العيد موقفاً متشدداً من محاباة السلطة في عصره، وطلب المناصب الرفيعة في الدولة، وقد عبّر عن ذلك تارة بنقد هذه السلطة وموقفها من العلماء، وأخرى بأشعار عبّر فيها صراحة عن موقفه

---

١. ابن العطار، ترجمة الإمام النوويّ، ص٣.

٢. المصدر نفسه، ص٢٨.

٣. الضرائب.

٤. ترجمة الإمام النوويّ، ص ٢٦، ٢٧.

٥. انظر ترجمة الإمام النووي، ص٢٠-٢٦.

٦. الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٤٥/١٠، الكتبي، عيون التواريخ، ٣٦٢/٢٠، فوات الوفيات، ٢٤٧/١. وانظر ما قيل في هذه الحادثة من أشعار، رائد عبدالرحيم، فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأوّل، ص٢٩٢ وما بعدها.

٧. انظر الكرمي، نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين، ص١٧٤.

هذا، فحين ألحّ عليه أناس في عصره على طرق أبواب السلطان، أجابهم قائلاً بأسلوب حواريّ، يكشف عن خبايا نفسه ونفوسهم[1]:

يقولون لي هلاّ نهضتَ إلى العلا ... فما لذّ عيشُ الصابرِ المتقنّعِ
وهلاّ شددتَ العيسَ حتى تُحلّها ... بمصر إلى ظلِّ الجنابِ المرفّعِ
ففيها من الأعيانِ مَن فيضُ كفِّهِ ... إذا شاء روّى سيلُهُ كلَّ بلقعِ
وفيها قضاةٌ ليس يخفى عليهم ... تعيّن كونِ العلمِ غير مضيّع
وفيها شيوخُ الدينِ والفضلِ والأُلى ... يُشيرُ إليهم بالعلا كلُّ أصبعِ
وفيها والمهانة ذلّةٌ ... فقمْ واسعَ واقصدْ بابَ رزقِكَ واقرعِ
فقلتُ: نعم أسعى إذا شئتُ أن أُرى ... ذليلاً مُهانا مُستخفّاً بموضعي
وأسعى إذا ما لذّ لي طولُ موقفي ... على بابِ محجوبِ اللقاء مُمنّعِ
وأسعى إذا كان النّفاقُ طريقتي ... أروح وأغدو في ثيابِ التصنّع
وأسعى إذا لم يبقَ فيّ بقيّةٌ ... أراعي بها حقّ التّقى والتورّعِ
فكم بين أرباب الصدور مجالساً ... تشبُّ بها نارُ الغضا بين أضلعي
وكم بين أرباب العلومِ وأهلها ... إذا بحثوا في المشكلاتِ بمجمعِ
مناظرة تحمي النفوسَ فتنتهي ... وقد شرّعوا فيها بكلّ مشرّعِ

يدرك ابن دقيق العيد، وهو العالم الجليل في عصره، ثمن التقرّب إلى السلطان، فنظرة منه على حال المقرّبين من علماء عصره، تجعله يرفض إلحاح الناس عليه، فبيّن لهم أن نعيم السلطان له ثمنه، ذلّة على أبوابه، وتخلٍّ عن كثير من القيم النبيلة، والمبادئ التي يؤمنون بها، والتزامهم النفاق، وقلّة الورع، وربّما أفتوا بما يخالف شرع الله إرضاء لأسيادهم. وهذا ما أكّده تاج الدين السبكي حين

١. معيد النعم، ص٥٩.

ذكر أن بعض المفتين في عصره "يُفتي ببعض ما لا يعتقده من المذاهب، ويرخّص لبعض الأمراء ما لم يرخّص فيه لعموم الخلق"[١].

ومن العلماء الأدباء الذين كانت لهم مواقف متشددة من السلطة الحاكمة في عصرهم زين الدين ابن الوردي، وقد عبّر عن ذلك بصور شتى في شعره، فها هو يرفض طرق أبواب السلطان للتكسّب بشعره "ودعا الشعراء إلى التزامه، لأنّ التكسّب بالشعر يجعل المتكسّب عبداً، ويحطّ من قدره، وقدر أشعاره"[٢]، يقول في لاميته[٣]:

وانظم الشعرَ ولازم مذهبي ... فاطّراحُ الرِّفدِ في الدنيا أقلْ
فهو عنوانٌ على الفضلِ وما ... أحسنَ الشعر إذا لم يُبتذلْ
أنا لا اختارُ تقبيلَ يد ... قطْعُها أجملُ من تلكَ القُبلْ
إنْ تُجزني عن مديحي صرتُ في ... رقّها أوْ لا فيكفيني الخجلْ

ويقول في قصيدة أخرى[٤]:

حمى الله شعريَ عن ذلّةٍ ... فلا يستكينُ ولا يخضعُ
وإنّ اكتسابَ الغنيِّ بالمديحِ ... مهينٌ له مؤلمٌ موجعُ
أرى البُخلَ مُستبشعاً فاحشاً ... وسعيي إلى بابِهم أبشعُ

---

١. معيد النعم، ص٨٠.
٢. رائد عبدالرحيم، ظاهرة التكسّب بالشعر وتجلياتها في النقد العربيّ القديم، ص١٢.
٣. ابن الوردي، الديوان، ص٤٣٦-٤٣٧، وانظر ص٣٦٩.
٤. ديوان ابن الوردي، ص٢٢٤.

لم يأت موقف ابن الوردي مبالغاً فيه، ولكنّه ابن عصره، يعلم ما كان يلاقيه شعراء عصره من مهانة وذلّة على أبواب المماليك، وأرباب الدولة المملوكية، وقد عبر أولئك الشعراء كثيراً عن ذلك في أشعارهم[١].

ويبدو أن ابن الوردي كان قد عرض عليه منصب القضاء، فرفضه، فتعجّب الناس من رفضه، فبيّن لهم أنّ العلم أعلى رتبة من القضاء، وأنّه يعفُّ عن هذا المنصب لتبعاته المهينة الأليمة، يقول[٢]:

تعجّبَ قومٌ كيف أتركُ منصبي ... وأرفضُهُ عمداً وما أنا مُضطرُّ
وقالوا: ترى مَنْ حلَّ في رتبةِ القضا ... وفارقها حتى يواريه الثرى
وأنتَ خبيرٌ بالقضاء وعسرِهِ ... ألا فلعلّ العسرَ يتبعهُ اليُسرُ
طِباعُ عفيفٍ لا يرى حبّ منصبٍ ... ولكنْ تشقّي حاسديه به مُرُّ
قَنِعتُ فخلتُ النجمَ دونيَ رتبةً ... وهيهاتَ خوف الفقرِ عند الغنى فقرُ

إن رفض هؤلاء العلماء وغيرهم منصب القضاء مرده خشيتهم تبعاته، كأن تُفرض عليهم الأحكام، أو أن يزيغوا عن الحق، ولعل شرط بعضهم ألاّ يأخذ أجراً على منصب القضاء، كان سببه ذلك، كي لا تكون رقابهم مرهونة بهذا الأجر والراتب عند سلاطين المماليك[٣].

وانتقد السلطة الحاكمة وموقفها من المثقف **الشعراءُ من أرباب الحرف وغيرهم**، الذين أوصدت الأبواب في وجوههم فعانوا مرارة الفقر والحرمان. وتنوّعت الفنون الأدبية التي انتقدتهم ما بين **شعر، ورسائل، وتمثيليات خيال الظلّ، ونثر تأليفي**. وتنوعت أساليبهم، فاتكؤوا على **التصوير، والسخرية، والوعظ والإرشاد،**

---

١. سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن الشاعر والسلطة المملوكية.

٢. ديوان ابن الوردي، ص٢٩٧، وانظر ص ٣٧، ٣١٤، ٣٧٧-٣٧٨، ٣٩٤-٣٩٥.

٣. انظر أمثلة على ذلك عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام: عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ص٧٦، ٩٥، وانظر ص٧٢.

والواقعية، والرمز، والفنون البديعية المختلفة، وبخاصة التورية، واستلهام الدين والتاريخ والقرآن والقصص الواقعي ...، وأسلوب المقابلة، والاستفهام الاستنكاري.

وقد تعددت مضامين تلك الفنون الأدبية التي انتقدت موقف السلطة المملوكية من المثقف، وكثير منها رمز إلى المثقفين **بأهل الفضل**، ومن مظاهر هذا النقد الآتي:

الإهانة والإهمال:

قدّم العلماء صوراً مختلفة لمظاهر الإهانة والإهمال التي مارسها المماليك في تعاملهم مع علماء ذلك العصر وفقهائه، ووقفوا في وجه هذه الممارسات، وانتقدوا أرباب السلطة الحاكمة، وهاجموهم، ووقفوا عند الأسباب التي تدفعهم إلى مثل هذا السلوك المشين، ووعظوهم، وبينوا العواقب الوخيمة التي ستنزل بهم إن هم استمروا في هذه الأفعال الخارجة عن حدود الدين والأخلاق، وقد عثر البحث على مادة أدبية وفيرة تعبّر عن ذلك، يمكن تصنيفها وفق العناوين الآتية:

بؤس العلماء وفقرهم ومحاربتهم في أرزاقهم:

وضع المقريزي العلماء والفقهاء في الطبقة الخامسة من طبقات المجتمع في العصر المملوكي، وهي طبقة الفقراء والمحرومين[1]، ولعل المقريزي هنا يقصد أولئك العلماء والفقهاء الذين ابتعدوا عن بلاط الحكام، ورفضوا الانخراط في سياساتهم الظالمة. أما أذناب الساسة ومؤيدوهم، ولسانهم الإعلامي الناطق باسمهم، فكانوا أهل الخيل والقصور والملابس الفاخرة. وقد وقف الأدباء طويلاً عند حياة البؤس والشقاء التي كان يعانيها العلماء في ظل المماليك، وهي حياة قصد إليها المماليك قصداً، وفق خطة تهدف إلى التضييق على من ينافسونهم أمام الجماهير، ويؤلبونهم عليهم.

---

١. انظر المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص١٤٧.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ سياسة التضييق في الرزق نهْجٌ لم يقف به المماليك عند حدّ المثقفين، ولكنّ الشعب كان يتضوّر جوعاً في عهدهم، ويعاني الفقر والحرمان، ولا أدل على موقفهم هذا من الصورة المعبرة التي رسمها الشاعر شهاب الدين الأعرج السعدي[1] لحال الناس في عهدهم؛ إذ قال مبيّنا وقوف المماليك سداً منيعاً أمام رزق العباد في مصر، ومتحدثاً عن كيفية توزيع الثروة في عصره، وحظّ الناس الشحيح منها[2]:

وكيف يروم الرزقَ في مصر عاقلٌ ... ومن دونه الأتراكُ بالسّيفِ والتّرسِ
وقد جَمَعتهُ القبطُ من كلِّ وجهةٍ ... لأنفسِهم بالرُّبع والثُّمنِ والخُمسِ
فللتركِ والسلطانِ ثلثُ خراجها ... وللقبطِ نصفٌ والخلائق في السدسِ

وقد عبّر الأدباء عن التضييق بالرزق الذي عاناه المثقفون يومذاك بأساليب مختلفة، ولعل أبرز مقطوعة تداولها المؤرخون والمترجمون في كتبهم قالها تقي الدين بن دقيق العيد، وصف فيها معاناة العلماء في ظل المماليك، الذين كانوا يهملونهم إهمال الوحوش، ويقرن بين حياة الدعة والترف التي كان يعيشها ساسة عصره، وحياة الفقر التي اكتوى العلماء بنارها، وهو في ذلك كلّه يرفع من شأنهم، ويرمي ساسة عصره بالجهل والعنصرية، ووضاعة المنزلة والقدر إذا ما قورنوا بالعلماء، يقول معبراً عن ذلك، ومشيراً إلى شقاء العالم في عصره بعلمه، وسعادة أرباب الدولة بجهلهم[3]:

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها ... أهلُ الفضائلِ مرذولون بينهمُ
قد أنزلونا لأنا غيرُ جنسِهِمُ ... منازلَ الوحشِ في الإهمال عندهُمُ

---

١ . أحمد بن يحيى بن مخلوف بن مري "الشيخ شهاب الدين الأعرج السعدي، المؤدّب الأديب، اشتغل بالعلم، وتعانى الأدب، فمهر وأدّب أولاد الأكابر ...، مات في أوائل سنة ٧٨٥هـ، وله سبع وستون سنة"، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ١٩٦.

٢ . الدرر الكامنة، ١٩٦/١. وانظر فن الفكاهة والسخرية عند شعراء مصر المملوكية، ص٢١.

٣ . تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٦/٦، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ١٨٢/١.

فمـا لهـم فـي توقّـي ضـيرِنا نَظَـرٌ وما لهـمْ فـي ترقّـي قـدرِنا همـمُ
فلـيتنا لـو قـدرنا أن نعرّفهـمْ مقدارَهـم عنـدنا أو لـو دروهُ هـمُ
لهـم مريحـان مـن جهـل وفـرطِ غنـى وعنـدنا المتعبـانِ العلـمُ والعـدمُ

ويبدو أنّ هذه المقطوعة أعجبت شعراء عصر ابن دقيق العيد، فعارضوها، ومنهم الشاعر ابن البقّي[1]، الذي توسّع في نقد أرباب السلطة في عصره، وهذا ما لاحظه الصفدي، فقال عنها: "وهي في وزنها ورويّها، لكن المعنى عكس ذلك"[2]، وفيها قارن بين علماء عصره، وبين رجال الدولة، فنعتهم بنعوت تخرجهم عن صفات الآدمية؛ إذ جعلهم وحوشاً وأنعاماً في قسوتهم وجهلهم، وبيّن أن منزلة علماء عصره الرفيعة هي التي جعلت أولئك يبغضونهم ويهملونهم، ويبدو تأثر الشاعر بابن دقيق العيد أولاً ثم بالمتنبي ثانياً جلياً في نصّه[3]:

أيـن المـراتبُ فـي الـدنيا ورفعتُـها من الـذي حـاز علمـاً لـيس عنـدهُمُ
لا شـكّ أنّ لنـا قـدراً رأوه ومـا لمثلهـمْ عنـدنا قـدر ولا لهُـمُ
هـمُ الوحـوشُ ونحـن الإنـسُ حكمتنـا تقودُهـمْ حيثمـا شـئنا وهـم نَعـمُ
ولـيس شـيء سـوى الإهمـالِ يقطعنـا عـنهمْ لأنهـمُ وجـدانهمْ عـدمُ
لنا المريحانِ من علمٍ ومن عدمٍ وفـيهم المتعبـان الجهـلُ والحشـمُ

---

١ . أحمد بن محمد بن فتح الدين ابن البقّي الحموي، "أقام بديار مصر، وكانت تبدو منه أشياء ضبطت عليه، وكان جيد الذهن، ذكياً، ولكن أداه ذلك إلى الاستخفاف بالقرآن والشرع، فضرب القاضي المالكي عنقه بين القصرين سنة ٧٠١هـ" الوافي، ١٥٨/٨، وانظر الدرر الكامنة، ١٨١/١-١٨٢.

٢ . الوافي، ١٥٩/٨.

٣ . طبقات الشافعية، ٦/٦، الوافي، ١٥٨/٨، الدرر الكامنة، ١٨٢/١.

إن ساسة العصر المملوكي، كما صوّرهم الشاعران، لا يدافعون عن العلماء، ولا يكفّون عن إيذائهم وإهمالهم، وغير قادرين في الوقت ذاته على اللحاق بمنزلتهم العلمية.

وشارك محيي الدين النووي في نقد سياسة التضييق التي مارسها الظاهر بيبرس على علماء عصره إذ كتب رسالة، انتقد فيها موقفه حين منع الفقيه أن يشتغل في عدة مدارس، وأن يقتصر على واحدة، فساندهم النووي في تحصيل حقوقهم، وخاطب الدولة في أمرهم، فانتقد سياستها، وحثّها بالحكمة والموعظة الحسنة على الرأفة بحال فقهاء المسلمين، مستعيناً بالأحاديث النبويّة الشريفة التي تبيّن مكانة العالم، يقول: "خدمة الشرع ينهون، أنّ الله تعالى أمر بالتعاون على البرّ والتقوى، ونصيحة ولاة وعامة المسلمين، وأخذ على العلماء العهد بتبليغ أحكام الدين، ومناصحة المسلمين، وحثّ على تعظيم حرماته، وإعظام شعائر الدين، وإكرام العلماء وأتباعهم"، ثمّ يتحدّث عن الضيق الذي أصاب نفوس الفقهاء جرّاء هذا القرار، ويبيّن أنّهم قوم ذو حاجة وعيال، لا يليق بقدرهم هذا الإجراء الذي اتّخذته الدولة، وهم المكرمون من الله، وورثة أنبيائه، يقول: "وقد بلغ الفقهاء بأنّه رُسم في حقّهم بأنّ يغيّروا عن وظائفهم، ويُقطعوا عن بعض مدارسهم، فتنكدت بذلك أحوالهم، وتضرّروا بهذا التضييق عليهم، وهم محتاجون ولهم عيال وفيهم صالحون، والمشتغلون بالعلوم، ...، ولا تخفى مراتب أهل العلم وفضلهم، وثناء الله عليهم، وبيانه مرتبته على غيرهم، وأنّهم ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، "فإنّ الملائكة –عليهم السلام– تضع أجنحتها لهم، ويستغفر لهم كلُّ شيء حتى الحيتان"، ثمّ يحثّ بيبرس وأرباب دولته أن ينظروا بعين العطف إلى هؤلاء العلماء الذين كرّمهم الله، ورفع شأنهم، وأن يهتموا بشؤونهم، وأن ينزلوهم منازلهم التي يستحقونها، ويوظفوهم لخدمة الدولة، والدعوة لها، بدل أن يستجلبوا غضبهم وسخطهم، فيقول: "واللائق بالجناب العالي إكرام هذه الطائفة، والإحسان إليهم،

ومعاضدتهم، ودفع المكروهات عنهم، والنظر في أحوالهم بما فيه الرفق بهم"، فقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، أنّه قال: "اللهمّ مَنْ ولِيَ من أمرِ أمّتي شيئاً ورفق بهم فارفق به"، وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدريّ،[1] رضي الله عنه، أنّه كان يقول لطلبة العلم: مرحباً بوصيّة رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، إنّ رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، قال: "إنّ رجالاً يأتونكم يتفقّهونَ في الدين، فإذا أتوكم، فاستوصوا بهم خيراً". والمسؤول أن لا يُغيّر على هذه الطائفة شيء، وتُستجلب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة، وقد ثبتَ في صحيح البخاريّ أنّ الرسولَ، صلى الله عليه وسلّم، قال: "هل تُنصرونَ وتُرزقونَ إلاّ بضعفائكم". ويستعين النووي بأحداث التاريخ لتدعيم رأيه، وإقناع السلطة الحاكمة بما فعله نظام الملك حين وبّخه السلطان لكثرة إنفاقه على طلاب العلم، فقال: "وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام المُلك حين أنكر عليه السلطان صرف الأموال الكثيرة في جهة طلبة العلم"، فقال: "أقمتُ لك بها جنداً لا تُردّ سهامهم بالأسحار، فاستصوبَ فعْله، وساعده عليه، والله الكريم يوفّق الجناب لمرضاته والمسارعة إلى طاعته، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم"[2].

ونَهَجَ نَهْجَ النووي في نقده أرباب السلطة الحاكمة تاجُ الدين السبكي في كتابه "معيد النعم ومبيد النقم"، الذي أرجع المصائب التي تحلّ بالأمة في العصر المملوكي من كوارث طبيعية، وفتن، وقتل، وغزوات، وغيرها إلى مفاسد الأمة بطوائفها المختلفة، ومنها سياسة المماليك الظالمة تجاه العلماء والفقهاء، والشعب بعامة، وتجاوزهم حدود الدين والأخلاق، وولوعهم بالحرام، فها هو يقول في حق كتاب الدواوين الذين يملؤون بطونهم بالحرام، ويمدون الأقلام للحرام، ثم يعاقبون

---

١. ترجمة الإمام النووي، ص٢٧.

٢. المصدر السابق، ص٢٨.

للحرام "أفليس حقاً إذا رأيته بعد زمن يسير مضروباً بالمقارع، يطاف به في الأسواق، ويُجنى عليه"[1]، ويقول في الوزراء الظلمة: "وكذلك ترى عواقب الوزراء وقبط الدواوين شر العواقب في الدنيا والآخرة"[2]. ولا يختلف مصير هؤلاء عن مصير الأتراك الذين يعتدون على العلماء، يقول: "**ولا وجدنا تركيّاً يهزأ بالفقهاء إلا ويهلكه الله تعالى، وتكون عاقبته وخيمة**"[3]. ولهذا عمد السبكي إلى وعظ هؤلاء الخارجين عن الدين والأخلاق، وضرب لهم على الوتر الديني، وحثهم على العودة إلى جادة الصواب، وإذا فعلوا ذلك ستتحقق سيميائية كتابه، فتعود النعم وتُباد النقم. أما إذا لم يفعلوا، فستظل النقم تطاردهم والنكبات. واستعان الكاتب أيضاً بأساليب الاستفهام والشعر والمقابلة، واستوحى القصص الواقعية لتحقيق الهدف ذاته، وراوح بين أسلوبي التصريح والتعريض.

لقد قدّم الكاتب مضامين شتّى تدل على التضييق الاقتصادي المقصود الذي نهجه المماليك وحاشيتهم بحق علماء العصر وفقهائه، فهو في معرض نصيحته السلطان المملوكي ينتقد موقفه من المثقفين في عصره، الذين يفيدون الإسلام، وينتقد إهمالهم من الناحية الاقتصادية، في حين ينفق الأموال على مماليكه وحاشيته وأتباعه دون حساب، ويبيّن أنّ هذا السلوك سبب من أسباب زوال النعمة عنه، يقول في معرض حديثه عن واجب السلطان في عصره: "ومن وظائفه أن ينظر في الإقطاعات، ويضعها في مواضعها، ويستخدم مَنْ ينفع المسلمين، ويحمي حوزة الدين، ويكفّ أيدي المعتدين، فإن فرّق الإقطاعات على مماليك اصطفاها، وزيّنها بأنواع الملابس والزراكش المحرّمة، وافتخر بركوبها بين يديه، وترك الذين ينفعون الإسلام جياعاً في بيوتهم، ثم سلبه الله النعمة، وأخذ يبكي، ويقول: ما بال نعمتي زالت، وأيامي قصرت! فيُقال له: يا أحمق! أما علمت

---

١. معيد النعم ومبيد النقم، ص٣٠.

٢. المصدر نفسه، ص٢٩.

٣. المصدر نفسه، ص٧١.

السبب؟ أولستَ الجاني على نفسك؟"[١]. ويلقي السبكي الضوء على سلوك آخر مارسه السلطان المملوكي على العلماء، فهو لا يكتفي بتركهم وعيالهم يتضوّرون جوعاً، بل كان يستولي على الأوقاف التي أوقفها أهل الخير من الأغنياء للإنفاق عليهم، ويبيعها بالرشوة، ويرمي السبكي هذا السلطان المتسلط بالحمق والجهل، وأن ما يفعله سبب من أسباب المصائب التي ستحل به، ويعظه بأن يحنو على هؤلاء العلماء، ويحافظ على الأوقاف التي تعيلهم، ويزيد في هذا العطاء، يقول: "فإن ترك العلماء والفقراء جياعاً في بيوتهم، ويبيتون ومنهم من يطوي الليلة والليلتين هو وعياله، وأخذ يمنّ بعظيم ملكه، ومحاسن سماطه وزينته ولباسه ولباس حاشيته فذلك أحمق جهول، وإن ضمّ إلى هذا أنه استكثر على الفقهاء ما بأيديهم، وتعرّض لأوقاف وقفها أهل الخير ...، فهو بلاء على بلاء، فإنّ من حقّه أن ينظر في مصالحهم وأوقافهم، وألا يكلهم إليها، بل ويرزقهم من بيت المال ما تتم به الكفاية، فإذا تعرض لها، فقد خرق حجاب الهيبة، فإن ختم إلى ذلك أنه يبيعها بالبرطيل[٢]، ويضعها في غير مستحقها فما يكون جزاؤه"[٣]. ويشير السبكي في معرض حديثه عن البريدية في عصره إلى أنّ الفقيه إذا ركب فرساً "أنكر عليه ذلك، وقيل: قد أخطأ السلطان أو نائبه في إركابه، فإن البريد لا يساق إلا لمهمّات السلطنة"[٤]، وينتقد السبكي موقف هؤلاء المنتقدين، الذين "يعنون بمهمات السلطنة ما اعتادوا به من شراء مملوك مليح، أو استدعاء مغن حسن الصوت، أو خراب بيت شخص أنهي عنه ما لا صحة له ....، وخفي عنهم أنّ أئمة العدل كانوا يستدعون العلماء من البلاد لأجل نفع المسلمين، واشتهار الدين، وأنّ ركوب البريد لهذا الغرض خير من ركوبه في أغراضهم الفاسدة"[٥]. فهو يبين في هذا المقام أن حكام عصره لا عناية لهم بالعلم، وأمر الدين، وإنما همهم متعهم الدنيوية، ولهذا كانوا يستبعدون العلماء، ويضيّقون عليهم في أرزاقهم، ويحاولون إذلالهم وإهانتهم،

---

١. معيد النعم ومبيد النقم، ص٢١ .

٢. الرشوة.

٣. معيد النعم، ص٢١-٢٢.

٤. المصدر نفسه، ص٣٢.

٥. المصدر نفسه، ص٣٢.

وهذا ما يؤكده في موضع آخر حين يستنكر عليهم أنّهم "يستخدمون في كلّ حصن طبيباً يستصحبونه في أسفارهم بمعلوم من بيت المال، ولا يتخذون فقيهاً يعلّمهم الدين، وما ذلك إلاّ لأنّ أمر أبدانهم أهم عندهم من أمر دينهم، نعوذ بالله من الخذلان"[١]. ويضيف السبكي إلى ما مرّ أن أرباب الدولة المملوكية كانوا يمنعون العلماء من ارتداء الملابس الثمينة، وركوب الخيل. أما هم، فكانوا يكنزون الأموال، وينفقونها على حاشيتهم، ويلبسون أفخر الثياب، ويرميهم هذا الفقيه بالمعصية والحقد، وقلّة الحياء، ويتنبأ لأمثالهم النقمة وزوال النعمة، ويعرض السبكي لهذا من واقع خبرته وتجربته ومشاهداته، كما يبدو في قوله: "ومن قبائحهم، استكثارهم الأرزاق، وإن قلّت على العلماء، واستقلالهم الأرزاق، وإن كثرت على أنفسهم، ورأيتُ كثيراً منهم يعيبون على بعض الفقهاء ركوب الخيل، ولبس الثياب الفاخرة، وهذه الطائفة من الأمراء يُخشى عليها زوال النعمة عن قريب، فإنها تتبختر في أنعم الله مع الجهل والمعصية، وتنقم على خاصّة خلقه يسيراً مما هم فيه، أفما يخشون ربهم فوقهم؟! ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده، أفما يستحي هذا الأمير المسكين من الله تعالى؟ وإذا سلبه الله تعالى نعمته فلِم يتعجّب ويبكي"[٢].

ويتلاعب شمس الدين بن دانيال بالألفاظ ليبيّن أن علماء عصره، الذين كنّى عنهم بالفضلاء، يكونون فضلة عند توزيع الأموال في الدولة المملوكية، ويبدو ذلك في قوله معبراً عن مأساة المثقفين أمثاله:[٣]

قد عقلنا والعقلُ أيّ وثاق ... وصبرنا والصبرُ مرُّ المذاقِ
كلُّ مَنْ كان فاضلاً كان مثلي ... فاضلاً عند قسمة الأرزاقِ

١. معيد النعم، ص٢٤.
٢. المصدر نفسه، ص٤٤.
٣. الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص٤٠.

والغريب أنّ أولي الأمر في الدولة المملوكية، الذين اعتادوا إهمال العلماء، كانوا إذا ما قرّبوهم، وأغدقوا عليهم الأموال، يكون لهم هدف وراء ذلك، وهو إخمال ذكرهم، فيكون حالهم حال الميت المقبور، وتتجلى هذه المعاني في شعر زين الدين ابن الوردي، في مديح القاضي كمال الدين بن الزّملكاني، ولعلّه يشير بذلك إلى العلماء الذين يتخلّون عن علمهم ومبادئهم لقاء أموال السلطة الحاكمة:[١]

وما لي أرى الحُكّامَ غيركَ إنْ رأوا ذكيّاً فأوفى حظِّهِ منهمُ الهجرُ
يولّونهُ في البرِّ قصدَ خمولِهِ فيُصبحُ ميْتاً والضَّياعُ له قبرُ

وهذا البؤس الذي كان يعانيه العلماء والأدباء هو الذي دفع الشعراء إلى الربط بين فقر هؤلاء وعلمهم، فلا مجال للجمع بين الغنى والعلم والأدب في العصر المملوكي، فكلّما ازداد علم الرجل ازداد فقره، وهذا ما يتجلى في قول الشاعر زين الدين ابن الوردي الذي وصف حياة الشقاء التي يعيشها العلماء، وبين أنه لا فضل إلا لجاهل في عصره:[٢]

لا تحرصنَّ على فضلٍ ولا أدبٍ فقد يضرُّ الفتى علمٌ وتحقيقُ
ولا تُعدُّ من العقالِ بينهمُ فإنّ كلّ قليل العقلِ مرزوقُ
والعلمُ يُحسبُ من رزقِ الفتى وله بكلِّ متّسعٍ في الفضلِ تضييقُ

وهذا الإهمال في رزق العلماء جعل عامة الشعب يقرنون بين العلم والفقر، ودفعهم إلى الطعن بالعلم والعلماء، ويتضح هذا في قول ابن الوردي الذي يحث على طلب العلم على الرغم من موقف الناس منه[٣]:

كنْ من أولي العلمِ ولو خاملاً وارضَ بما يقسمُهُ الرازقُ
لئن يقولوا عالم كاسدٌ ولا يقولوا جاهلٌ نافقُ

١. ابن الوردي، الديوان، ص٢٩٧-٢٩٨.
٢. المصدر نفسه، ص٢٧٨.
٣. المصدر نفسه، ص٤١٦.

ولعل ما مرّ هو ما جعل الشاعر أبا الحسين الجزار يندم على إنفاق حياته في علوم النحو والعروض، فهي لم تجلب له الرزق، وإنما التعاسة والشقاء، ولهذا عدّها ضرباً من الهذيان، وعدّ الخوض فيها جهلاً، وأحسن الشاعر في توظيف مصطلحات العلوم في التعبير عن وضعه البائس، ووضع علماء العصر أمثاله، يقول معبراً عن ذلك:[1]

قطعتُ شبيبتي وأضعتُ عمري ... وقد أتعبتُ في الهذيانِ فكري
وما لي أجرةٌ فيه ولا لي ... إذا ما تُبتُ يوماً بعض أجر
قرأتُ النحوَ تِبياناً وفهما ... إلى أن كعتُ منه وضاق صدري
فما استنبطتُ منه سوى محالٍ ... يُحالُ به على زيدٍ وعمروِ
فكان النّصبُ فيه عليَّ نصباً ... وكان الرفعُ فيه لغير قدْري
وكان الخفضُ فيه محلّ حظّي ... وكان الجزمُ منه لقطع ذكري
وفي علم العروضِ دخلتُ جهلاً ... وعُمتُ لخفتي في كلِّ بحرِ
مُفاعلتنْ مُفاعلتنْ فعولنْ ... حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عمرو

ولا يخفى على قارئ جمال هذه الأبيات، وعمق السخرية والمرارة التي تحملها، إذ استطاعت أن تحمل مأساة المثقّف، الذي كان لا يلقى القبول والرزق عند أرباب السلطة الحاكمة، وهو ما يحمله قوله: "إذا ما أتيت بعض أجر"، وهو يقصد إتيان أرباب الدولة وساستها، والنتيجة المنطقية لهذه الحال أن تكون علامات الإعراب التي تعلمها في علم النحو: النصب، والخفض، والجزم، دالاً معبراً عن حياته البائسة، وخمول ذكره. أما علامة الرفع، فإنها لم تفده، وإنما رفعت غيره، الجاهل بها.

احتقار المثقّف وتهميشه واستبعاده:

انتقد الأدباء السلطة المملوكية التي تعمّدت احتقار المثقفين في زمانهم واستبعادهم، وقد أشار البحث آنفاً إلى السبكي وأقواله في هذا الموضوع، الذي عزا الأمر إلى تركيز ساسة عصره على **أبدانهم، ومتعهم الدنيوية، وتقديمها على**

١. أحمد عبدالمجيد، شعر أبي الحسين الجزار، ص٥٨.

حساب الروح والآخرة. وشايعه في ذلك وأضاف الأديب زين الدين عمر ابن الوردي، وهو من الشعراء الذين امتلأ ديوانهم بالنقد السياسي والاجتماعي، فقد نقد حكام عصره وظلمهم، وتحكّمهم برقاب العباد، ومنهم المثقف، الذي كان لا كرامة له عندهم، فهو في قصيدته التي مطلعها:[١]

تـــــذكّرتُ بـــــالبرقِ إذ يلمـــــعُ   منـــازلَ كانـــت بكـــم تجمـــعُ

يشكو الدهر وتناقضاته، فهو يرفع الوضيع، ويضع الرفيع، ويرمي هؤلاء الساسة **بالجهل**، ويتنبأ بزوال دولتهم، لاحتقارهم أهل العلم والأدب، وينصح بتجنب محاورتهم في ذلك لأنهم ليسوا أهله، ويبيّن أن الموقّر عندهم مَنْ تذلّل لهم، وقبل الخنوع، يقول:[٢]

هـــو الـــدهرُ يلحـــنُ فـــي أهلِـــهِ   فـــيخفضُ مَـــنْ حقُّـــه يُرفـــعُ
فـــلا تُعجبُـــكَ عُـــلا جاهـــلٍ   فـــدولتُهُ بغتـــةً تُقلـــعُ
فخـــلِّ العلـــومَ إذا جئتهـــمْ   فلـــيسَ لهـــا عندهـــم موقـــعُ
ولا تـــذكرنْ أدبـــاً عندهُـــمْ   فـــآدابُ أشـــعارهم بَلقـــعُ
أجـــلُّ الـــورى عنـــدهم رُتبـــةً   وضـــيعٌ يزمـــزمُ أو يُصـــفَعُ

ويقف على سبب آخر لموقف الساسة من المثقفين وهو **بخلهم**، وكنزهم الأموال، ويبين الشاعر أن الجاه والمال لن ينفعهم في الآخرة، يوم يجتمعون في دار الحق مع من ظلموهم، يقول:[٣]

مضـى مـا مضـى وانقضـى مـا انقضـى   وعنـــد المُهيمـــنِ نُســـتجمَعُ
فـــلا الجـــاهُ يومئـــذٍ نافـــعٌ   ولا المـــالُ حينئـــذٍ يشفـــعُ
فيـــا جـــامعَ المـــالِ بخـــلاً بـــه   رويـــدكَ وانظـــرْ لمـــن تجمـــعُ

---

١. ديوان ابن الوردي، ص٢٢٢.
٢. المصدر نفسه، ص٢٢٤.
٣. المصدر نفسه، ص٢٢٥.

وعبّر ابن الوردي عن غبطة أرباب الحكم في عصره بتأخير العلماء وإذلالهم إذ قال[1]:

يـــرونَ جمـــيلاً أنّهـــم لـــم يرفعـــوا ولـــيس لأهـــلِ القـــدرِ عنـــدهُمُ قـــدرُ

ويتحدث في قصيدة أخرى عن انقلاب الأحوال في زمانه، وبدا ذلك من مطلعها:[2]

صـــبراً لصـــرفِ زمـــانٍ قـــاطعِ الحجـــجِ لم يدرِ ما صـحّةُ الممشى من العَرَجِ

ومن مظاهر هذا التحوّل في عصره أنّه لم يعد هناك تبجيل لأهل الفضل من العلماء، وذلك لاستيلاء **الجهل** على ساسته، ولا يستهجن الشاعر إذا ما ميزان العدل مال يومئذ، فكفتاه قد يوضع في إحداها الغالي والنفيس، وفي الأخرى الحقير الوضيع من المعدن، ويبين أن مقياس الفضل عند أرباب الدولة المملوكية الدرهم والدينار، ويهجوهم الشاعر حين ينصح المتلقين ألا يزاحموا هؤلاء على الدنيا لأنّ مزاحمة الكلاب فيها هياجها، يقول:[3]

فيـــا ذوي الفضـــلِ رفقـــاً إنّ دهركُـــمُ لم يدرِ ما الفضـةُ البيضـا من السّبجِ
لا تعجبـــوا لارتفـــاعِ الجـــاهلين بـــه وخفضـــكُمْ بالرضـــا مـــنكم أو اللّجـــجِ
فهـــذه كفّـــةُ الميـــزانِ إذْ حكمـــتْ تُقابـــلُ الذَّهـــبَ الإبريـــزِ بالصّنَـــجِ
زيـــادةُ الفضـــلِ عـــينُ الـــنّقصِ عنـــدهُمُ وكثـــرةُ المـــالِ فـــيهمْ أرفـــعُ الـــدّرَجِ
فـــلا تُـــزاحمْ علـــى الـــدنيا الكـــلابَ فمـــنْ يـــزاحم الكلـــبَ فيمـــا نالَـــهُ يهِـــجِ

---

١. ديوان ابن الوردي، ص٢٩٦.
٢. المصدر نفسه، ص٢٤٤.
٣. المصدر نفسه، ٢٤٥.

ولا يخفى أن الشاعر يحاول الاستتار وراء الدهر، والجهل، والكلب للتعبير عن حكام عصره.

ورسم ابن الوردي مظهراً آخر من مظاهر إهمال المثقف واحتقاره في العصر المملوكي، وتجلّى ذلك في أن أرباب الحكم كانوا إذا تأخّر عنهم العالِم عاتبوه ولاموه، وإذا طرق أبوابهم جعلوه ينتظر طويلاً على أبوابهم، وإن أدخلوه أهملوه في مجلسهم، وقد عبر الشاعر عن حيرته في شخصية هؤلاء الساسة إذ قال مستعيناً بالقرآن الكريم(١):

"إن انقطعنـــــا فالعتـــــابُ الثقيـــــلْ   وإن حضـــرنا فالحجـــابُ الطويـــلْ
وإن دخلنـــــا فالـــــودادُ القليـــــلْ   واللــهِ قـد حرنـا "فصـبرٌ جميـل"(٢)

مثل هذه الشكوى والنقد والحيرة عبّر عنها الشاعر أبو الحسين الجزار في قوله:(٣)

إن تــــأخّرتُ قيــــل: مـــلَّ وإن لا   زمــتُ أُدعــى مــن جُملــةِ الأثقــالِ

وكأن هؤلاء المماليك كانوا يستدرجون هؤلاء العلماء والأدباء إلى مجالسهم بقصد إهانتهم واحتقارهم، فلا معنى لأن يلوموهم على قلّة الزيارة، ثم إذا زاروهم يهملونهم إلا هذا.

وانتُقد أرباب الدولة المملوكية إذ كانوا يهملون العلماء، ويقدّمون الجهال عليهم، ويعلون من شأنهم، وهذه شكوى عبّر عنها كثير من شعراء ذلك العصر، ومنهم ابن الوردي في قوله:(٤)

١. ديوان ابن الوردي، ٢٨٣.
٢. سورة يوسف، آية ١٨.
٣. أحمد عبدالمجيد، شعر أبي الحسين الجزار، ص٧٩.
٤. ديوان ابن الوردي، ص٢٩٦-٢٩٧.

تقــدّمني مَــنْ كــان خلفــي وســاءني خمــولي ولكــنْ هكــذا يفعــلُ البَــرُّ

ومثل هذه الشكوى والنقد أطلقها تاج الدين النحوي[١]، الذي صوّر تقدّم الجاهل على المثقف في عصره، ولكنّه يواسي نفسه حين يستحضر صورة من الطبيعة، تدل على قيمة الثمر المكمم أو المغطّى بالقشور، يقول[٢]:

مــا علــى العــالمِ المهــذّبِ عــارُ إن غـدا خـاملاً وذو الجهـلِ سـامي
فاللبــابُ الشَّــهيُّ بالقشــرِ خــافٍ ومصــونُ الثِّمــارِ تحــتَ الكمــامِ

ورمي الشاعر مجير الدين بن تميم حكام عصره بالحول في عيونهم، لأنها ترمق بعين العطف الجهال، وتضع من قدر الفضلاء، إذ قال مكنياً عن هؤلاء الساسة بالدهر:[٣]

الــدهرُ عنــدي لا محالــة أحــولُ فاسـأل بـهِ مَـنْ كـان بـه طَبَّـاً عـاقلاً
يرنــو ليلحــظَ فاضــلاً فيــردُّهُ **حــولٌ** بعينيــهِ فــيلحظُ جاهــلاً

وقد دفع الإهمال والتضييق والاستبعاد علماء العصر إلى دفع الرشوة لحكّام المماليك، للحصول على منصب يعتاشون منه، أو يُعلي من شأنهم، وقد عبّر ابن الوردي عن ذلك إذ انتقد هؤلاء الساسة الذين يرضون على أنفسهم النزول إلى هذا المستوى، وفي معرض ردِّه على مَنْ عرض عليه تقديم الرشوة للمماليك لينال

١. أحمد بن عبدالقادر بن أحمد بن مكتوم القيسي، ولد سنة ٦٨٢هـ، اشتغل بالحديث، و "تقدّم بالفقه، ودرّس، وناب في الحكم"، توفي في مرض الطاعون سنة ٧٤٩هـ. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٠٤/١-١٠٥.

٢. الدرر الكامنة، ١٠٥/١.

٣. مجير الدين بن تميم، الديوان، ص١١٤.

منصب القضاء، وعدّ الشاعر الحصول على القضاء بالرشوة ناراً ستحرقه، وتحرق كل الساعين إلى المنصب بهذه الطريقة، يقول(١):

قيـــل لـــي: برطِـــلْ الـــذّهب بتـــولّي قضـــا حلـــبْ
كيـــف هـــم يحرقوننـــي وأنـــا أشـــتري الحطـــبْ

السجن والتعذيب والقتل:

إنّ الباحث في تاريخ العصر المملوكي الأول ورجاله، يكشف أنّ هناك احتراماً من السلطة المملوكية وتوقيراً للعلماء والأدباء، الكتّاب منهم بخاصة، الذين يسيرون في ركبها، وينفّذون سياساتها، وكثيراً ما يطالع المنقّب في كتب هذا العصر أن السلطان الفلاني أو الأمير يحترم هذا العالم أو ذاك. أمّا إذا خرج عن سياسات الدولة المرسومة، واستهان بأرباب الدولة وأذاها بلسانه أو أفعاله، فليس له عندها إلاّ التهديد والوعيد، بل الإجراءات العقابية التي تؤذيه نفسياً أو جسدياً، فلا حرمة لعالم أو أديب خالف سياسات المماليك، ولعل مقولة "ما أنت من العوام ولو كنتَ ابن عبد السلام"(٢) التي شاعت على ألسنة الناس في ذلك العصر ما هي إلا تعبير عن هذا الواقع.

وجد في العصر المملوكي عدد غير قليل من العلماء الذين واجهوا السلطة المملوكية، وانتقدوا سياساتها، فقست عليهم السلطة، وعاقبتهم بل قتلتهم وعذبتهم، وقرّ قرارها بعد ذهابهم وموتهم، وأشار البحث آنفاً إلى محيي الدين النووي، وهذا الشيخ العالم عزّ الدين بن عبدالسلام الذي عاش في العصرين الأيوبي والمملوكيّ، وقف موقفاً معارضاً وصلباً من كثير من سلوك السياسيين في عصره، وبخاصة

١. ديوان ابن الوردي، ص٣٧٠.

٢. فوات الوفيات، ٣٦٧/١، وانظر عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ص٧٦.

حين رآهم يخالفون تعاليم الإسلام، ويفرّطون بحقوق الأمّة، فيروى أنّه كان في خطبه يتجنّب "الثناء على الملوك، بل كان يدعو لهم"[١]، وأنه أنكر على الملك الأيوبي الصالح إسماعيل "تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنج، ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكيّ، فأخرجهما من بلده"[٢]. واعترض على تولّي المماليك الحكم، لأنّهم عبيد لم يتحرّروا، "ففي أيام الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٨هـ قدم الشيخ إلى مصر، وتولّى القضاء، فأمر ببيع جميع الأمراء وأكابر الدولة محتجاً بأنهم لم تثبت حريتهم، فراجعوا السلطان في ذلك بالملاطفة، فصمم على بيعهم، فغضب نائب السلطنة، وأتى في عسكره لبيت الشيخ مجرداً سيفه ليقتله، فلما وقع بصر الشيخ عليه، دُهش ويبست يده، وبُهت الحاضرون حتى تابوا، واشتروا أنفسهم بأغلى ثمن لبيت المال، وله مع الملك الصالح وقائع، وترك بعد ذلك جميع المناصب والولايات"[٣]. وكان العز بن عبدالسلام يواجه الظاهر بيبرس وينتقده، فانزعج الأخير، ولهذا قال عقب وفاة الشيخ "لم يستقر ملكي إلا الساعة، لأنّه لو أمر الناس فيما أراد لبادروا إلى امتثال أمره"[٤].

وقد أرجع تاج الدين السبكي ولع حكام المماليك بالتعذيب والقتل، وإنزال أصناف العقوبات بالعلماء وغيرهم إلى صفة أصيلة في نفوسهم، وهي، سرعة الشك، وسوء الظنّ، وسبب ذلك قلّة دينهم وورعهم، ولهذا كانوا يجعلون الظنّ يقيناً، فيحاكمون، ويعذبون عليه، يقول: "وقد اعتبرتُ كثيراً من الأتراك فوجدتهم يميلون إلى أوّل شاكٍّ، وما ذاك إلاّ للغفلة المستولية على قلوبهم، التي صيّرت قلوبهم كالأرض الترابية، التي لم تُروَ بالماء، فإذا أتاها الماء رويت، سواء أكان ذلك الماء صافياً، أم كدراً، زلالاً بارداً، أم كدراً حاراً، ثمّ إذا رويت، وجاء ماء آخر صاف

---

١. ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ١١٠/٢.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٠٠/١٣، وانظر ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ١١٠/٢.

٣. الكرمي، نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين، ص١٦٧.

٤. ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ١١١/٢.

حسن لم تشربه، وصار مائعاً عليها، فهذه هي القلوب الغافلة، عن الحقّ، نسأل الله السلامة"[1]. هذا فضلاً عن شهوة الانتقام وحبه عندهم، كما عبّر السبكي، حين جعل ذلك ضرباً من الجنون[2].

لقد صور الأدباء عمليات القتل والتعذيب التي انتهجها رجال الحكم المماليك بحق العلماء، وانتقدوها، وهاجموا القائمين عليها، وهم في ذلك كلّه يلقون الضوء على معاناة المثقّف في ظل هذه الدولة، وقد تنوّعت هذه الإجراءات، وتدرّجت من التوبيخ والتقريع، إلى الضرب والتنكيل، إلى السجن والقتل، فهذا السبكي ينتقد أمراء المماليك، لإهانتهم العلماء، وركونهم إلى الوشاة الذين يطعنون عليهم، ويتهمونهم بارتكاب الأخطاء، وينكر عليهم سرعة استجابتهم إلى المبغضين، الذين ربما كانت أخبارهم كاذبة، ويستنكر عليهم أيضاً معاقبتهم أولئك العلماء على أخطاء يقترفونها هم، فكأنما يحللونها لأنفسهم، ويحرّمونها على غيرهم، ويتنبأ لمثل هؤلاء بسوء المصير، لأنّ لحوم العلماء مسمومة في إشارة إلى حديث للرسول، صلى الله عليه وسلّم، كما يبدو في قوله: "ومن قبائح **كثير من الأمراء** أنّهم لا يوقّرون أهل العلم، ولا يعرفون لهم حقوقهم، وينكرون عليهم ما هم يرتكبون، وما أحمق الأمير إذا كان يرتكب معصية ووجد فقيهاً يُقال عنه مثلها أن ينتقصه ويعيبه، وما له لا ينظر إلى نفسه مع ما خوّله الله تعالى من النعم، وما أعلمُ أن القبيح عند الله تعالى حرام بالنسبة إلى كلِّ واحد، وربما كان عند الفقيه ما يستر قبيحه، وليس عند الأمير وراء ذلك القبيح إلا أمثاله من القبائح، فمما يتعيّن على الأمير إذا أنهي إليه عن أحد من أهل العلم سوء ألا يصدّقه، ويحسن الظنّ بهذه الطائفة، فإنّ لحومهم مسمومة، وما رأيتُ أميراً يغضّ من جانب الفقهاء إلا وكانت عاقبته عاقبة

---

١. معيد النعم ومبيد النقم، ص١٩.

٢. انظر المصدر نفسه، ص٢٥.

سوء"[1]، ويسرد قصّة واقعية تدل على سوء المصير الذي قد ينزل بالأمير الذي يظلم العلماء، فيقول: "وبلغنا أنّ فقيهاً رُفع إلى بعض الأمراء وهو سكران، فأخذ الأمير يجلده، والأمير أيضاً سكران، فلمّا قام الفقيه قال: ربّ اغفر لي، وجاء إلى القاضي، وقال: أقم عليّ الحدّ، فإنّ الأمير فاسق لا تصحّ إقامته الحدّ، فأهلك الله ذلك الأمير بعد أيام يسيرة"[2].

ويصوّر الشاعر ابن الوردي ما كان يتعرض له المثقف في عصره من عقوبة وسجن إذ قارن بين حاله وحال جامع الضرائب في الدولة المملوكية، فهذا معزّز مكرم، وذاك مهان مستبعد، وبدا ذلك جلياً في قوله ساخراً عقب سَجْنِ القاضي جمال الدين يوسف[3] بدمشق[4]:

دمشـــــقُ لا زالَ ربعُهـــــا خَضِـــــراً بعـــدلها اليـــومَ يُضـــرَبُ المثـــلُ
فضـــــامنُ المَكـــــسِ مُطلـــــقٌ فَـــــرِحٌ فيهـــا وقاضـــــي القضـــــاةِ مُعتَقَـــلُ

واشتهر في العصر المملوكي أن بعض العلماء كان يتعرض له الأمراء بالأذى، فكان يدعو عليهم فيستجيب الله له، ومنهم تقي الدين السبكي، فقد روى الصفدي أنه "لم يرَ أحداً من نواب الشام، ولا من غيرهم تعرّض له فأفلح، بل يقع له إما عزل، وإمّا موت، جرّبنا هذا وشاع وذاع، حتى قلتُ له يوماً في قضية: يا سيدي، دعْ أمر هذه القرية، فإنّك قد أتلفتَ فيها عدداً، ملكُ الأمراء وغيره في

---

١. معيد النعم ومبيد النقم، ص٤٤ .

٢. المصدر نفسه، ص٤٤ .

٣. جمال الدين يوسف بن جملة، كان فاضلاً غزير العلم، تولى التدريس في مدارس دمشق، ثم القضاء، الذي عزل منه، وسجن سنة ٧٣٤هـ، لأنّه تجاوز الحد في تعزير الشيخ الظهير الرومي، توفي سنة ٧٣٨هـ. انظر ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ٤٣٤/٢.

٤. ديوان ابن الوردي، ٢٨٥.

ناحية، وأنت وحدك في ناحية، وأخشى أن يترتب على ذلك شرٌّ كبير، فما كان جوابه إلاّ أن أنشد قوله:

وليـــت الـــذي بينـــي وبينـــك عـــامرٌ وبينـــي وبـــين العـــالمين خـــرابُ[1]

وذكر الصفدي أن تقي الدين السبكي قال غير مقطوعة، كان يدعو فيها على الأمراء، ويصوّر فيها ما كان ينزل به من ظلمهم، فكان "يتوسل بها إلى الله، فإذا انقضت حاجته طمس اسم الذي كان دعا عليه، فمما رأيت من ذلك وقرأته تحت الطمس قوله:

ربِّ اكفنـــــــــي قراجـــــــــا[2] وأولِـــــــــهِ اعوجاجـــــــــا
ضـــــــيّق عليـــــــه ســـــــبلاً ورجِّـــــــه ارتجاجـــــــا"[3]

وكان نائب دمشق ثم القاهرة أرغون حاول الوشاية بالشيخ عند السلطان المملوكي، فكتب فيه رسالة حملها أحد معاونيه، ويدعى طَيبغا، سنة ٧٥٢هـ، فدعا الشيخ على النائب قائلاً:[4]

إلهـــي أرغـــونُ تظـــاهرَ جاهـــداً ليـــؤذيَني مـــع طَيْبَغـــا بمطالعـــهْ
فيـــا ربِّ أهلكـــهُ وخـــلِّ دون قصـــدِهِ ليخشـى ويجـري عـن قريـب مشـارعهْ

فلم تطل مدة ذلك النائب في الحكم.[5]

---

١. الدرر الكامنة، ٣٩/٣.
٢. كان دويدار بعض نواب الشام يومذاك.
٣. الدرر الكامنة، ٣٩/٣.
٤. المصدر نفسه.
٥. المصدر نفسه.

وكان الشيخ تقيّ الدين بن تيمية من أكثر العلماء الذين تعرّضوا لسخط الدولة المملوكية، وأرباب الحكم والسلطة فيها من السياسيين، ورجال العلم والفقه، أو مَنْ ادّعوا ذلك، وتستّروا به، على حدّ تعبير البزار في السيرة التي كتبها لابن تيمية[١].

لقد كان هذا الإمام كثير الانتقاد لسياسات الدولة، يقف مواقف صلبة من تفشّي الظلم والفساد في عصره، وكان ينتقد مواقف وآراء عدد من العلماء والفقهاء ذوي النفوذ والسلطة في الدولة المملوكية[٢]، ووقف موقفاً متشدداً من أصحاب الأفكار الدخيلة على الإسلام، والسلوك الذي يناقضه، ومن المتصوفين في عصره، أولئك الذين أدخلوا البدع والشعبذات على التصوّف، وصاروا يتقرّبون إلى الله بالغناء، وصاروا يتعاطون الحشيشة والمخدرات في زواياهم وتكاياهم وخانقاواتهم، وأضحوا يرتدون الملابس المضحكة، وقرون البقر، ويحلقون حواجبهم ورؤوسهم، ويأكلون ويشربون كالأنعام، يتواكلون ولا يتّكلون، ولهذا نقموا عليه وشكوه إلى أرباب السلطة المملوكية، وادّعوا عليه وافتروا[٣]. وكان للشيخ أتباعه الذين تعاضدوا على طاعة أوامره، فكان هو وإياهم يحاربون الظلم والفساد، ويزيلون البدع والمنكرات بأيديهم إن قصّرت الدولة في ذلك، ومن ذلك حملته على بائعي الخمر والمسكرات في دمشق سنة ٦٩٩هـ، إذ دار "بنفسه على ما جُدّد من الخمّارات، وأراق خمورها، وكسر أوانيها ....، وعزّر الخمّارين هو وجماعته"[٤]، وفي السنة ذاتها "حضر ومعه عدّة من الحجّارين، وقطع الصخرة التي بجوار مصلّى دمشق

---

١. انظر، الأعلام العلية، ص٧٢.

٢. انظر، الأعلام العلية، ص ٧٢-٧٣، المقفى، ٤٥٥/١، ٤٥٦، ٤٦١.

٣. انظر المقفى، ٤٦٠/١.

٤. المصدر نفسه، ٤٥٩/١.

حتى زالت وأراحت الناس من أمرها، فإنّها كانت تُزار، وينذرها الناس، ويتبرّكون بها"[١].

وكان لهذا الشيخ دوره في حثّ السلطة الحاكمة على الجهاد وتثبيت العزائم في الحرب، وبخاصة ضد المغول، وكان يواجه زعماء المغول الذين احتلوا بعض بلاد المسلمين، ويؤنّبهم على ما فعلوا بالمسلمين، ويستخلص منهم بعض أسراهم[٢]. وقد ضايقت هذه الأفعال أرباب السلطة الحاكمة، فاتّهم بسعيه إلى تغيير السلطان الناصر محمد بن قلاوون والانقلاب عليه، فتتبعته هو وأصحابه، فسجنه غير مرّة[٣].

واضطهدته السلطة بعد فتاويه في الطلاق، وزيارة القبور، فقد أفتى الشيخ بـ "المنع من السفر وإعمال المطيّ إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين"، و"في أنّ الطلاق الثلاث بكلمة يُردّ إلى واحدة"[٤]. ومن مظاهر هذا الاضطهاد أن أحرقت كثير من كتبه[٥]، وسجن في قلعة دمشق، وأُخرج ما كان عنده "من الكتب والكراريس والأوراق، ومن دواة وأقلام، ومُنع من الكتابة، وقراءة الكتب وتصنيف شيء من العلوم البتة ....، وكانت أكثر من ستين مجلّداً وأربع عشرة ربطة كراريس"[٦]، ولم يزل في سجن قلعة دمشق حتى توفي "يوم الاثنين العشرين من

---

١. المصدر نفسه، ٤٦٠/١.

٢. انظر تفصيل ذلك في الأعلام العلية، ص٦٧-٧٢، المقفى، ٤٥٧/١ ٤٥٨. انظر تفصيل ذلك: رائد عبدالرحيم، دور العلماء والأدباء إبان الغزو المغولي في العصر المملوكي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد ١٠، السنة الخامسة، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م. ص١٧٣ وما بعدها.

٣. انظر الأعلام العلية، ص٧٢، المقفى، ٤٦٢/١.

٤. المقفى، ١/ ٤٦٧.

٥. المصدر نفسه، ٤٦٨/١.

٦. المقفى، ٤٦٧/١. وانظر مرعي الحنبلي، الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ص١٨٢.

ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة"[١]. وكان لوفاته أثر كبير في نفوس الناس[٢]، "فما هو إلاّ أن سمع الناس بموته، فلم يبق في دمشق مَنْ يستطيع المجيء للصلاة عليه وأراده إلاّ حضر لذلك وتفرّغ له. حتى غُلّقتْ الأسواق بدمشق، وعُطّلتْ معايشها حينئذ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم، وخرج الأمراء والرؤساء، والفقهاء والعلماء، والأتراك، والرجال والنساء، والصبيان من الخواص والعوام"[٣]، "وحُزر مَنْ صلّى عليه من الرجال فكانوا ستين ألفاً، وخمسة آلاف امرأة"[٤]، وقيل "خمسة عشر ألف امرأة غير اللائي كنّ على الأسطحة وغيرهنّ "وحزر الرجال" بستين ألفاً إلى مائة ألف، إلى أكثر من ذلك إلى مائتي ألف"[٥]. ويلخّص ابن فضل الله العمري أسباب هذه النكبة التي نزلت بابن تيمية إذ قال: "وذلك لحطّه على سلف بعض العلماء، وحلّه لقواعد كثيرة من نواميس القدماء، وقلّة توقيره للكبراء، وكثرة تكفيره للفقراء "المتصوفة"، وتزييفه لغالب الآراء، .....، وما أفتى به آخراً في مسألتي الزيارة والطلاق"[٦].

وقد "رثاه كثير من الفضلاء بقصائد متعددة"[٧]، "وجماعات من الناس بالشام ومصر والعراق والحجاز والعرب من آل فضل الله"[٨]. انتقدوا في مراثيهم السلطة

---

١. المقفى، ٤٦٧/١-٤٦٨، وانظر الأعلام العلية، ص٨٢.

٢. انظر تفصيل ذلك في الأعلام العلية، ص٨٢-٨٥، البداية والنهاية، ١٤/ ١١٥.

٣. الأعلام العلية، ص٨٢-٨٣.

٤. المقفى، ٤٦٨/١.

٥. البداية والنهاية، ١١٦/١٤.

٦. المقفى، ٤٧٣/١-٤٧٤.

٧. الأعلام العلية، ص٨٦، البداية والنهاية، ١١٦/١٤، ١١٨.

٨. المقفى، ٤٧٥/١. وانظر الكواكب الدرية، ص١٨١.

الحاكمة، وما أنزلته من مصير مؤلم بالشيخ، وجاءت مشاعر النقمة والحزن جيّاشة في أشعارهم، فمن ذلك قصيدة شهاب الدين ابن فضل الله العمري، ومطلعها[١]:

أهكـــذا بالـــدياجي يُحجـــبُ القمـــرُ ويُحـبسُ النّـوءُ حتـى يـذهبَ المطـرُ؟

ويبرز الشاعر فيها نقمته وسخطه على حاسديه وأعداء الشيخ ابن تيمية من سلطان، وعلماء موالين للسلطة المملوكية، ويسخر منهم، ويقرّعهم، ويؤنّبهم، وينعتهم بالأعادي، لأنّه لا يفعل بعالم جليل هذا الفعل إلا عدوّ، يقول مستنكراً[٢]:

أهكـــذا بتقـــيّ الـــدينِ قـــد عبثـــت أيـدي العـدا وتعـدّى نحـوه الضـررُ؟

ويستهجن الشاعر ما اقترفوه بحقّه من سجن وإهمال ثم موت، وهو على ما هو عليه من عظمة وجلالة، فهو أمانيّ كلّ أمة وبلد، ولو كان في غير هذا القطر لأتاه الناس من كلّ حدب وصوب على أبوابه. وقد عبّر الشاعر عن ذلك بتكرار عبارة "مثل ابن تيمية"، "وليؤكد مكانته الرفيعة من جهة، وكِبْر أعدائه، وصدوعهم عن الحقّ من جهة أخرى"[٣]، يقول[٤]:

أمثلُـــه بيـــنكم يُلفـــى بمضيعـــةٍ حتـــى يَطيـــحَ لـــه عمـــداً دمٌ هَـــدَرُ؟
يكـــونُ وهـــو أمـــانيٌّ لغيـــركمُ تنويـــه منكُـــمُ الأحـــداثُ والغِيَـــرُ[٥]
واللـــهِ لـــو أنّـــهُ فـــي غيـــرِ أرضِـــكمُ لكـــانَ مـــنكمْ علـــى أبوابِـــهِ زُمَـــرُ
مثـــلُ ابـــنِ تيميّـــةٍ يُنـــسى بمحبسِـــهِ حتـــى يمـــوتَ ولـــم يُكحـــلْ بـــه بصـــرُ
مثـــلُ ابـــنِ تيميـــةٍ ترضـــى حـــواسِدُهُ بحبـــسِهِ ولكـــمْ فـــي حبسِـــهِ عـــذرُ

١. المقفى، ٤٧٥/١.

٢ . المقفى، ٤٧٥/١.

٣ . رائد عبد الرحيم، فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول، ص١٥٧.

٤ . المقفى، ص٤٧٦/١.

٥ . هذا البيت مكسور في الأصل.

مثـلُ ابـنِ تيميـةٍ فـي السجـنِ مُعتقـلٌ والسـجنُ كالغمـدِ وهـو الصـارمُ الـذّكرُ
مثــلُ ابــن تيميــةٍ يُرمــى بكــلِّ أذى ولـيس يُجلــى قـذى منــه ولا نظـرُ

ويربط ابن فضل الله العمري أولئك الساسة والحاسدين بالكفّار الذين آذوا الأنبياء، ورجال الصلاح والتقوى عبر التاريخ تارة بطريقة مباشرة، وأخرى غير مباشرة، وهذا ما تجلّى في قوله مصوّراً ما نزل بالشيخ من بلاء[1]، وناعتاً أعداءه بصفات تدل على سوئهم، وضررهم على الخلق[2]:

بـل هكـذا السَّـلفُ الأبـرارُ مـا برحـوا يُبلـى اصـطبارهمُ جهـداً وهـم صُـبُرُ
تــأسّ بالأنبيــاءِ الطُّهــرِ كــم بلغــتْ فــيهم مضــرّةُ أقــوامٍ وكــم هُجِــروا
أيـذهبُ المنهـلُ الصـافي ومـا نُقعـتْ بــه الظِّمــاءُ ويبقــى الحمــاةُ الكُـدُرُ؟
مضــى حميـداً ولـم يعلـقْ بــه وَضَـرٌ وكلّهــم وَضَــرٌ فــي النــاسِ أو وذَرُ

ولا يخفى شدّة الأوصاف التي يرمي بها أعداء ابن تيمية في المقارنة التي يجريها بينه وبينهم، فهو منهل صاف، وهم حمأة كدرُ، وهو لم يعلق به وضر، وهم وضر ووذر.

ويستمر الشاعر في مهاجمتهم وانتقادهم، والتقليل من شأنهم، مبيناً ضآلة منزلتهم أمام الشيخ الإمام، ويتمنى لو أنّهم استعاضوا عن دسائسهم بمواجهته علمياً، ويستوحي في هذا السياق قصة موسى وفرعون ليحثهم على فعل الأخير حين تحدّى موسى على الملأ، ولا يخفى ما في هذا الاستيحاء من إهانة لهم، فهم طغاة مثل فرعون، والشيخ مثل موسى مؤيّد من الله جلّ وعلا "وحطّ من قدرهم حين جعلهم أقلّ منزلة ورتبة من سحرة فرعون، ذلك أنّ هؤلاء أذعنوا لأمر موسى، وآمنوا معه بعدما رأوا البراهين الدالة على صدقه، أمّا هم، فظلّوا على جهلهم

١. المقفى، ٤٧٦/١.
٢. المقفى، ٤٧٦/١، الكواكب الدرية، ١٨٤.

وعنادهم لذلك الشيخ، وسعيهم له بالمكائد"[١]، ويصرّح الشاعر بكفرهم وضلالهم؛ إذ قال[٢]:

يا ليت شعري هل في الحاسدين له ... نظيره في جميع القوم إن ذُكروا
هل فيهمُ لحديث المصطفى أحدٌ ... يُميّزُ النّقدَ أو يُروَى له خبرُ؟
هلاّ جمعتمْ له من قومكم ملأً ... كفعلِ فرعونَ مع موسى لتعتبروا؟
قولوا لهم: قال هذا فابحثوا معه ... قدّامنا وانظروا الجهال إن قدروا
تلقى الأباطيلَ أسحارٌ لها دَهَشٌ ... فيلقف الحقُّ ما قالوا وما سحروا
فليتهم مثل ذاك الرّهطِ من ملأٍ ... حتى يكونَ لكم في شأنِهِ عبرُ
وليتهمْ أذعنوا للحقِّ مثلهمُ ... فآمنوا كلّهم من بعد ما كفروا

ولا يفتأ الشاعر يفحش على أعداء ابن تيمية من أرباب الدولة في القول، ويبلغ هجاؤه لهم ذروته حين يقول[٣]:

عليكَ في البحثِ أن تبدي غوامضَهُ ... وما عليكَ إذا لم تفهم البقرُ"

ورثى ابنَ تيمية الشيخُ زين الدين عمر ابن الوردي بقصيدة بلغت سبعة وعشرين بيتاً[٤]، سلّط الضوء على محنة الشيخ[٥]، وانتقد حاسديه العلماء من أرباب السلطة وغيرهم، الذين سعوا للنيل منه، والإيقاع به، فهو منذ البيت الأول يشير إلى قسوة هؤلاء "عثا في عرضه قومٌ سلاط"[٦]، ويقف على الأسباب التي

---

١. فن الرثاء، ص١٥٨.
٢. المقفى، ٤٧٦/١-٤٧٧، الكواكب الدرية، ١٨٤-١٨٥.
٣. المقفى، ٤٧٨/١.
٤. انظر ابن الوردي، الديوان، ص٢٦٦-٢٦٧، تاريخ ابن الوردي، ٢٧٥/٢-٢٧٦، الصفدي، أعيان العصر، ٢٥٠/١، الوافي، ٣٢/٧، المقفى، ٤٧٨/١-٤٧٩، الكواكب الدرية، ١٨٧-١٨٨.
٥. انظر فن الرثاء، ص١٥٩.
٦. ديوان ابن الوردي، ص٢٦٦. الكواكب الدرية، ص١٨٧.

دفعتهم إلى ما فعلوه، فقد "جاهروا بعداوته لعجزهم عن بلوغ مرامه، والوصول إلى رتبته في العلم، وتنبأ لهم بمصير كلّه ندم وخسران، وزجرهم حين سألهم عن سبب تعديهم على ذلك الشيخ، وهو الذي ترك لهم مناصب الدنيا، وآثر الزهد والتقشّف والرضا بالقليل"[1]، وانتقدهم حين صوّر أفعاله تدخل السرور إلى قلب أعداء الإسلام اليهود، الذين تخلّصوا من عالم كان ينغّص عليهم، ويفحمهم في ساحة المناظرات والجدل والحوار، ويطلب إليهم أن يستريحوا بعد موته، وأن يحلوا ويربطوا دون رادع يقف في وجوه تجاوزاتهم وأخطائهم، ولعلّ هذا كما يُلمح الشاعر، كان السبب في رغبتهم في الخلاص منه، قال[2]:

هم حسدوه لمّا لم ينالوا ... مناقبَه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طرائقه كُسالى ... ولكنْ في أذاه لهم نشاطُ
ولكن يا ندامة حاسديه ... فشكُّ الشِّركِ كان به يُماطُ
ويا فرحَ اليهودِ بما فعلتم ... فإنّ الضدّ يُعجبُه الخباطُ
ألم يكن فيكمُ رجلٌ رشيدٌ ... يرى سجنَ الإمامِ فيُستشاطُ
إمامٌ لا ولايةَ كان يرجو ... ولا وقفٌ عليهِ ولا رِباطُ
سيظهرُ قصدكُم يا حابسيهِ ... ونيّتُكُم إذا نُصبَ الصِّراطُ
فها هو مات عندكم استرحتمْ ... فعاطوا ما أردتم أن تُعاطوا
وحلّوا واعقدوا من غيرِ ردٍّ ... عليكم وانطوى ذاكَ البِساطُ

وانتقد كتاب سيرة ابن تيمية السلطة الحاكمة، التي ركنت إلى زمرة العلماء الذين أوغروا صدرها تجاهه، فأضحوا قساة في تعاملهم معه، وهؤلاء بدورهم استعانوا بضعاف النفوس من العامة، وأغروهم بالأموال، فناصبوه العداء، كما يبدو في السيرة التي كتبها معاصر ابن تيمية عمر بن علي البزار، وعنوانها "الأعلام

---

١. فن الرثاء، ص١٥٩.

٢. ديوان ابن الوردي، ص٢٦٦-٢٦٧، الكواكب الدرية، ص١٨٧-١٨٨.

العلية في مناقب ابن تيمية"، إذ قال مشيراً إلى انصياع بعض الحكام المماليك إلى أعداء ابن تيمية: "فبعضهم صبا إلى أقوالهم تقليداً، وصار في حقِّ هذا الإمام جباراً عنيداً، وأحس بذلك من العامة قوم قد أصبحوا للحكام عبيداً، وتصوّروا أنّ أخذهم بزمام حصول المال يكون شديداً، فأصبحوا وهم لهم مصدّقين، وفي طاعتهم مستبقين، فاجتمع من هذا التركيب العتيد، بحيث عاداه أكثر السادات والعبيد، كلّ بحسب غرضه الفاسد"[1]

السلطة والأديب:

إن الناظر في حال الأدب في العصر المملوكي يجد مظهرين: مظهراً إيجابياً، وآخر سلبياً. فالمظهر الأول يتجسّد في حال الكتاب المقرّبين من السلطة في ذلك العصر، فهؤلاء كان قسم كبير منهم يغرق في نعيم الدولة، وكانت لهم السيادة والوجاهة، ومرد ذلك حاجة الدولة لهم في ديوان الإنشاء، فقد كانت تعتمد عليهم في مخاطبة الشعب، وإصدار الفرمانات، والتوقيعات والمناشير وغير ذلك، حتى صارت مكانة بعضهم تأتي في الدرجة الثانية بعد السلطان، وتجلّى ذلك في المنصب الذي استحدثه المنصور قلاوون في ديوان الإنشاء المملوكي، وهو وظيفة كاتب السرّ السلطاني، وأوّل مَن عيّن في هذا المنصب فتح الدين بن عبدالظاهر، والمهام الملقاة على عاتق هذا الكاتب عظيمة، تُظهر أثره في الدولة المملوكية[2]، وكثير من هؤلاء الكتاب عاشوا في نعيم، وكانت لهم الخدم والحشم، والمنزلة الرفيعة في الدولة، ونظرة سريعة في كتب تراجم ذلك العصر تظهر هذه الحقيقة، وتكشف عن أنّ الشعراء الذين فقدوا الواهب المعطي من رجال الحكم والسياسة في ذلك العصر كانوا يتزاحمون على أبوابهم، ليمدحوهم، وينالوا عطاياهم، ولهذا كثرت مدائح الشعراء فيهم، وكثرت شكوى هؤلاء الشعراء من كساد سوق الشعر في

---

١. الأعلام العلية، ص٧٦.

٢. انظر تفصيل وظائف كاتب السر: موسى بن حسن الموصلي، البرد المُوشّى في صناعة الإنشا، ص١٨-٢٠ من مقدمة المحقق.

عصرهم في تلك المدائح، وبيّنوا فيها أن الكتاب الممدوحين هم الملجأ والمأوى في عصر أوصدت فيه الأبواب أمامهم. ولم يكن هذا حال الكتاب الشعراء الذين لم يجدوا لهم مأوى في ظلِّ المماليك، ومن هنا كثرت الشكوى والنقد السياسي في أشعارهم، ومن هؤلاء الأديب علاء الدين الوداعي الكندي[١]، الذي كان ماهراً في الكتابة، ولكنّ أبواب الدولة أُقفلت في وجهه، فاضطر إلى الرشوة، وشراء منصب الكتابة في ديوان الإنشاء المملوكي[٢] "فيظهر من إحدى المقطعات الشعريّة أنّ الوداعي كان يذهب إلى ذوي المال والجاه والسّلطان، فمنعه بعض البوّابين من الدّخول عليهم، فحنق عليه، وقال ساخراً منه، وواصفاً شدّة ملازمته الباب:

أشكو إلى الرحمنِ بوّابكمْ ... وما أرى من طولِ تعميرِهِ
ملازمُ البابِ مقيمٌ بهِ ... كأنّه بعضُ مساميرِهِ"[٣]

وشكا ابن الوردي على لسان بعض الكتّاب حال الكاتب البعيد عن السلطة في العصر المملوكي، وضيعته وضيق عيشه، ثم رفعة الجاهل يومذاك إذ قال:[٤]

إن لمت حظّي فلا تلمني ... فإنّ لوحي له بحقِّ
للضدِّ رزقٌ بلا حسابٍ ... ولي حسابٌ بغيرِ رزقِ

وشبيه بحال الكاتب أو الكاتب الشاعر البعيد عن السلطة كان حال الشاعر الصرف في سلطة المماليك، فقد أحست هذه الدولة أنّ هؤلاء لا فائدة لهم ولا دور

---

١. من أدباء العصر المملوكي المشهورين، ومن شعراء السخرية والهجاء في ذلك العصر، كان مثقفاً في النحو، واللغة والأدب، وعلمي الحديث والقرآن، توفي سنة ٧١٦هـ. انظر حياته وشعره كتاب: رائد عبدالرحيم، علاء الدين الوداعي الكندي حياته وشعره وما تبقى من ديوانه.

٢. انظر الشيخ علاء الدين الوداعي حياته وشعره وما تبقى من ديوانه، ص٢٤ وما بعدها.

٣. المرجع نفسه، ص٣٠.

٤. ديوان ابن الوردي، ص٢٣٣.

سوى التملّق، ونهب الأموال، ولهذا استبعدوهم، ولجّوا في استبعادهم، وهناك سبب آخر لاستبعادهم، وهو أنّ كثيراً من أرباب السلطة المملوكية كانوا لا يتقنون اللغة العربية، ولا يتذوّقون الشعر، وكان همّهم جمع الأموال، والتصدّي لمطامع الأمراء، والأخطار الخارجية المحدقة بالأمة وبخاصة خطر الصليبيين والمغول. ولهذا لم يكن هناك شاعر بلاط بارز في العصر المملوكي، وهذه هي الصفة العامة لحال أرباب الحكم مع الشعراء، لكن لا ينبغي التعميم المطلق في هذا المقام، فقد كان ينظر هؤلاء في بعض الأحيان نظرة العطف إلى الشعراء، أو نظرة الأبهة باعتبار الشعر ضرباً من العظمة السياسية أو التعبئة الإعلامية، ولهذا لا نعدم في مواقف متعددة أن يمدح الشاعر حاكماً من الحكام عقب معركة، أو بناء صرح معماري، أو غير ذلك من المناسبات، فيقوم السلطان أو الأمير ببذل العطايا والهبات له. يروى أن الظاهر بيبرس لمّا أتمّ بناء المدرسة الظاهرية سنة٦٦٢هـ، قام بعض الشعراء، ومنهم أبو الحسين الجزار، وسراج الدين الورّاق فمدحوه، وأشادوا بالمدرسة الظاهرية، فلمّا فرغ هؤلاء .. من إنشادهم، "أفيضت عليهم الخلع"[١]، وحين مات الظاهر بيبرس أقيم له مجلس عزاء في الديار المصرية[٢]، فرثاه عدد كبير من الشعراء، وكان عددهم اثني عشر شاعراً، فخلع على الأديبين أبي الحسين الجزار، وناصر الدين ابن النقيب[٣]، "وأعطي من بقي من الوعاظ

١. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٢٢١/٤.

٢. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٣٧/١، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٣١-٢٣٢، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢٤٩/٣.

٣. الحسن بن شاور بن طرخان، ناصر الدين أبو محمد المعروف بابن الفقيسي، وبابن النقيب، الشاعر المشهور، "وله أشعار ومقطعات رائقة"، "وكان حسن الدعابة"، توفي سنة ٦٨٧هـ. ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، ٢٦٢/١-٢٦٣، العيني، عقد الجمان، ٣٧٦/٢-٣٧٧، وفيات سنة ٦٨٧هـ.

والشعراء جوائز بحسب مراتبهم"[١]. وفي عقد الجمان "فوُصلوا وأعطاهم بيبرس العطايا"[٢].

ويذكر أن الملك الأشرف خليل بن قلاوون كان يتقن اللغة العربية، ويستمع إلى الشعر، وينقده ويكافئ عليه، يروي العيني أنّه بعد انتصار الملك الأشرف على الصليبيين، وافتتاحه عكا سنة ٦٩٠هـ، وعودته إلى القاهرة، خرج الناس للقائه والشعراء لامتداحه، ومنهم ابن العنبري[٣] الواعظ الذي نظم قصيدة بهذه المناسبة ليلقيها أمامه "فلم يرزق فيها سعادة، ولا فتح عليه منها فتوح ...":

زرْ والـــديكَ وقـــفْ علـــى قبريهمـــا فكـــأنني بـــك قـــد نُقلـــت إليهمـــا

وكان السلطان ذكيّاً، ففهم معنى شعره، فلمّا وصل آخر البيت حتى نهض السلطان قائماً، وسائر الناس معه، والتفت إلى بيدرا[٤] كالمغضب بسببه، وقال: "ما لقي هذا غير هذا القول..."[٥]. وكان الأشرف قبل توليه السلطة على علاقة وثيقة بالشاعر شمس الدين بن دانيال الكحال، وبينهما مواقف هزلية رواها المؤرخون[٦]. وكانت للناصر محمد بن قلاوون علاقات متقطعة مع الشعراء، فقد كان يقرّبهم أحياناً، ويمنحهم الهبات، ولهذا كانوا يمدحونه، ومنهم الشاعر صفي

---

١. ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٣١-٢٣٢، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢٤٩/٣. فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي، ص٤٠.

٢. عقد الجمان، ٣٨٤/١.

٣. محمد بن محمد بن عبدالله بن مهلهل بن غياث بن نصر، نجم الدين المعروف بابن العنبري الواعظ. انظر المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٣٨١/٢.

٤. بدر الدين بيدرا أحد أمرائه المقرّبين، اشترك في قتله سنة٦٩٣هـ، ولكنه قتل ثاني يوم قتل الأشرف. انظر الفاخري، تاريخ الفاخري، ١٣٦/١، ابن دقماق، التحفة المسكية في الدولة التركية، ص٩٢.

٥. العيني، عقد الجمان، ٦٩/٣.

٦. انظر ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ٣٨٠/١٩ وما بعدها.

الدين الحلّي، الذي تردد إلى مصر غير مرة ومدحه[١]، ومنهم الشاعر شهاب الدين الشَّارمْساحي[٢]، الذي "كان يُحضره الملك الناصر مجلسه في بعض الأحيان"[٣]. ولم يقتصر الأمر على المماليك، فقد شارك بعض أمراء الدولة المملوكية في إكرام الشعراء، والاستماع إليهم، ووجد عدداً لا بأس به من الأتراك الجنود والأمراء وغيرهم كانوا شعراء، أو أولعوا بنظم الشعر[٤]، وبعضهم له دواوين شعر منشورة مثل أيدمر المحيويّ[٥].

ولكنّ ذلك كلّه لا يعني أنّ مكانة الشاعر كانت رفيعة في ذلك العصر، بل هي على العكس من ذلك، ودليله الشعراء أنفسهم الذين حفلت دواوينهم، وأشعارهم المتناثرة في بطون الكتب بالشكوى وبالحديث عن مكانتهم الوضيعة في العصر المملوكي، وعن فقدان المعطي من أرباب الدولة المملوكية، وارتقت هذه الأشعار إلى مستوى النقد السياسي المعبّر عن موقف السلطة من الأديب، وتضمّنت الحديث عن أسباب هذا الموقف ونتائجه، وبرزت هذه الشكوى في شعر أرباب الحرف في الدولة المملوكية، الذين اضطرتهم هذه الحال المزرية إلى العودة إلى حرفهم التي ورثوها عن آبائهم أو تعلموها ليعتاشوا منها، ولكنّهم ظلّوا يشعرون

---

١. انظر الصفدي، أعيان العصر، ٣/٧٠، الكتبي، فوات الوفيات، ٢/٣٣٥، النجوم الزاهرة،١٠/١٨٨، الدرر الكامنة، ٢/٤٧٩.

٢. شهاب الدين أبو العباس الشارَمساحي، شاعر مطبوع، وصاحب نوادر ظريفة، أغري بالهجاء وثلب الأعراض. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩/١٧٨، والدرر الكامنة، ١/١٧٦.

٣. النجوم الزاهرة، ٩/١٧٨، والدرر الكامنة، ١/١٧٦.

٤. حفلت كتب التاريخ والتراجم المتعلقة بالعصر المملوكي بالحديث عن هؤلاء الشعراء الأتراك، وسردت نماذج كثيرة من أشعارهم. انظر على سبيل المثال: أعيان العصر، ١/٦١١، ٦٥٨ الدرر الكامنة، ١/٢٣٣، ٢٣٨-٢٣٩، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٦٥، ٢٧٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢/١٣١، ٤/١٦٠.

٥. محيي الدين محمد بن محمد بن ندى، علم الدين أيدمر المحيوي، عاش في العصرين الأيوبي والمملوكي، وبرع في الشعر والنثر. انظر مقدمة مختار ديوان علم الدين أيدمر المحيوي، من ز. ط.

بـالظلم والفقـر والمهانـة، وهـم يـرون مَـن هـم أدنـى مـنهم مكانـة يرتفعـون علـيهم ويرتقون، فارتفعت نبرة الشكوى والنقد المعبرة عن ظلم ساسة العصر، وعن فقرهم وبؤسهم، وامتزجت هذه المعاني بسخرية، وميل إلى الدعابة والفكاهة جُبلوا عليها، فخرج شعرهم في حلية تجعل المتلقي "يرى العالم من خلاله في مرح يشوبه الألم"[١]. ومن الجدير ذكره أنّ المقريزي وضع أرباب الصنائع في الطبقة السادسة من طبقات المجتمع المملوكي، وهي التي تلي الطبقة الخامسة، طبقة الفقراء[٢]. وبرزت الشكوى ونقد أرباب الحكم في شعر أبي الحسين الجزار، وسراج الدين الوراق، وشمس الدين ابن دانيال الكحال، وهؤلاء من أرباب الحرف؛ فالجزار، كما يقول ابن سعيد المغربي، الذي زار مصر والتقى الشاعر فيها "كان أبوه وأقاربه جزارين بالفسطاط، دكاكينهم بها إلى الآن قد عاينتها، وأبصرته معهم بها"[٣]، ويبدو أنّ هذا الشاعر كان متكسباً في شعره، وكانت تُغدق عليه الأموال بكثرة زمن الأيوبيين من ملوكهم وأمرائهم، ولكنّ حاله انقلبت عقب استلام المماليك الحكم، وهذا ما يؤكده ابن سعيد الذي رأى الشاعر سنة ٦٤٦هـ وقبلها، فقال واصفاً حاله يومذاك: "وأصبح جوالاً في آفاق الديار المصرية، جانياً لدانيات قطوفها، ونازحاً بها من كلِّ عاص ومطيع، حتى صارت له في أقطارها عدة رسوم، يجتمع له فيها ما لا يحصّله في هذا العصر أحد من أهل المنظوم"[٤]. وأشار ابن سعيد إلى صعوبة ما كان يعانيه الجزار وهو يتكسب بشعره إذ قال: وله في "شرح ما يقاسيه

---

١. محمود الجريدلي، شعر أبي الحسين الجزّار، ص٢١.

٢. انظر إغاثة الأمة، ص١٤٧.

٣. ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، ٢٩٦/١.

٤. المغرب، ٢٦٩/١.

في النَّيل شعر كبير"[١]، وهناك إشارة مهمة في عيون التواريخ تشير إلى انقلاب حال هذا الشاعر في العصر المملوكي، الذي احتاج إلى وسيلة أخرى للتسول غير الشعر، لأنّه لم يعد مجدياً في التسول، وهذا ما يحمله قوله: "واحتاج في آخر عمره إلى الاستجداء بغير الشعر"[٢]. ووصف المترجمون شاعريته، وطريقته في الشعر بأنها "من أسهل الطرق التي يميل لها العامة، ولا ينكرها الخاصة لقرب مأخذها"[٣]، وكان "بديع المعاني، حلو النادرة، وصاحب مجون وزوائد"[٤]، ولهذا "شاع شعره في البلاد، وسار وخفّ على الأسماع، وتناقلته الرواة"[٥]. أما سراج الدين الوراق، فكان يعمل في نسخ الكتب، وكان ماجناً، يميل إلى الهزل والدعابة في شعره[٦]، "وكان حسن التخيّل، جيد المقاصد، صحيح المعاني، عذب التركيب، التركيب، قاعد التورية والاستخدام، عارفاً بالبديع وأنواعه"[٧]، وكان يستغل اسمه لصنع التورية، والسخرية من الذات "حتى قيل: لولا لقبك وصناعتك لذهب غالب شعرك". وكان هو والجزار يتنافسان في الشعر والسخرية والنقد الاجتماعي والسياسي، حتى شبههما ابن فضل العمري بالفرزدق وجرير إذ قال: "وكان هو والجزار فرسي رهان، وقبسي نار، لا يسكت لهما لسان، يتناقضان تناقض الفرزدق

---

١. المصدر نفسه، ٢٩٧/١.

٢. الكتبي، عيون التواريخ، ٢٥١/٢١.

٣. المغرب، ٢٩٦/١.

٤. ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ٦٠/١، وانظر ذيل مرآة الزمان، ٤ /٦١، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٩٣/١٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٢٠٢/٧.

٥. عيون التواريخ، ٢٥١/٢١.

٦. انظر مسالك الأبصار، ١٦/١٩ وما بعدها.

٧. الكتبي، الوافي بالوفيات، ١٤٠/٣، وانظر ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٣١٧/٨-٣١٨، النجوم الزاهرة، ٦٩/٨.

وجرير"[١]. وأما شمس الدين بن دانيال، فكان كحالاً، وكان "له دكان كحل داخل باب الفتوح" في القاهرة[٢]، وهو "صاحب النظم الحلو، والقريض الذي ليس فيه بيت من النكت خلو"[٣]، وكان "كثير المجون والنوادر"[٤]، وله حكايات هزلية مع أناس عصره، وأمرائه رواها المترجمون، وهو صاحب تمثيليات خيال الظل، التي نشرها إبراهيم حمادة، وهي الوحيدة التي وصلت إلينا في هذا الفن المعتمد على الواقع في مادته، ممزوج بروح الأديب الساخرة، ولغة العامة، وكان ابن دانيال هو المؤلف والممثل لهذه التمثيليات.

وقد وضع ابن حجة الحموي هؤلاء الشعراء الثلاثة في الحلبة الأولى من رواد التورية في العصر المملوكي[٥]، وقد وظفوها ليتواروا خلفها في شكواهم، ونقدهم السياسي، وبرزت بصورة جلية في أشعارهم التي عبّروا فيها عن حال الشاعر في عصرهم.

ولم تقتصر الشكوى والنقد السياسي على شعراء الحرف، بل شارك فيه غيرهم، وفي مقدمتهم شاعر العصر المملوكي جمال الدين محمد بن نباتة، الذي كان فحلاً من فحول الشعر والنثر في عصره، ولكنّ حظّه مع أرباب الدولة المملوكية كان قليلاً، ولهذا جاء النقد السياسي والشكوى موضوعاً بارزاً في شعره[٦]، ولهذا أيضاً وجّه مديحه إلى ملوك الأيوبيين في حماة، الذين كانوا يخضعون لحكم ذاتي في ظل دولة المماليك، وكان بلاطهم مأوى للشعراء

---

١. مسالك الأبصار، ٢٠/١٩.

٢. الوافي بالوفيات، ٥٢/٣، أعيان العصر، ٤٢٣/٤.

٣. أعيان العصر، ٤٢٢/٤، وانظر الوافي بالوفيات، ٥١/٣.

٤. المقريزي، المقفى الكبير، ٦٣٩/٥.

٥. انظر ابن حجة الحموي، كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام، ص١٧.

٦. انظر وئام محمد سيد، الشكوى في شعر ابن نباتة، مجلة جامعة أم القرى، عدد ١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

المنبوذين في بلاط المماليك، ولم تكن له مكانة في الدولة المملوكية إلا في أخريات حياته حين استدعاه الناصر حسن، وكان الشاعر يومها شيخاً كبيراً عاجزاً، وجعله موقعاً للدست السلطاني، ثم أعفي، وأمر له السلطان راتباً "فربما صرف وربما لم يصرف، وأقام خاملاً إلى أن مات في السابع من صفر سنة ٧٦٨هـ"[١]. وهو أيضاً من شعراء التورية في عصره[٢]، وشعراء "المجون، والعبث الشعري" والسخرية[٣].

وقد تعددت وتنوّعت مضامين أشعارهم التي نقدوا بها أرباب الدولة في عصرهم، وطريقة تعاملها مع الأدباء، فتوزّعت على العناوين الآتية:

موقف السلطة من الأديب:

وصف الشعراء سوق الأدب والشعر في عصرهم، فبيّنوا كساد هذا السوق، وتوغلوا في نفوس أرباب السلطة، لتصوير عمق هذا الموقف، وللتعبير عن كره هؤلاء الساسة، وتجلّى ذلك في معرض مدائحهم بعض الكتاب وأولي الأمر العرب في الدولة المملوكية، فأبو الحسين الجزار يستخدم ألفاظ "دارس، وتعفّت، ونفقت، وقفر"، ليرسم صورة لحال الشعر يومذاك، وليقنع ممدوحه أنه هو الذي أنقذ الشعراء من انعكاسات هذه الألفاظ على حياته، إذ قال مورّياً:[٤]

لـكَ اللـهُ قـد أحييـتَ بالفضـلِ سـنّةً تعفّـتْ فأضـحى ربعُـها دارسـاً قفـرا
ونفّقْـتَ سـوق الفضـلِ بعـدَ كسـادِهِ ولا غروَ أن نُهدي إلى المشتري الشعرا

١. الوافي بالوفيات، ٣١١/١، الدرر الكامنة، ٣٣٩/٤، النجوم الزاهرة، ٩٥/١١.
٢. انظر ابن حجة، كشف اللثام، ص٥٩، خزانة الأدب وغاية الأرب، ٣٠٤/١.
٣. شعر السخرية والفكاهة عند شعراء مصر المملوكية، ص٢٤.
٤. شعر أبي الحسين الجزار، ص٤١. وانظر أدب الصناع وأرباب الحرف، ص٣٠٩.

ويقدّم الجزار صورة لمعاناته حين كان يفد على أرباب الحكم في عصره، فهو لم ينله منهم سوى الفقر والحرمان، ويوظّف حرفته للسخرية من هؤلاء وذمهم حين يلتقونه إذ صوّرهم بقراً ينفرون حين يرون الشاعر الجزّار:[١]

معشــــرٌ مـــا جـــاءهمْ مســـترفدٌ   راحَ إلاّ وهْـــوَ مـــنهم مُعســـرُ
أنـــا جـــزّارٌ وهـــم مـــن بقـــرْ   مـــا رأونـــي قـــطّ إلاّ نفـــروا

وتبلغ السخرية منهم ذروتها حين يستوحي أبو الحسين الجزار ألفاظاً من اللغة التركية، لينتقد موقف ساسة عصره منه، فيتحدّث أنه غير مرّة التقى بأولئك الأتراك ليمدحهم، ولكنهم كانوا يحنقون عليه، ولا يحترمونه، بل كانوا يضربونه، وتبلغ السخرية مداها حين صوّرهم يدعون بهلاكه إذا ما عطس أمامهم، كما يبدو في قوله:[٢]

وكـــم قابلـــتُ تركيّـــاً بمدحـــي   فكـــادَ لمـــا أحـــاولُ منـــه يَحنـــقْ
ويلطمنـــي إذا مـــا قلـــتُ ألطـــن   ويرمُقُنـــي إذا مـــا قلـــتُ يرمُـــقْ
وتســـقطُ حرمتـــي أبـــداً لديـــه   فلـــو أنّـــي عطســـتُ لقـــال يَشْـــمُقْ[٣]

أمّا سراج الدين الوراق، فيبيّن أنّ هؤلاء الحكام الأتراك لو تمكنوا من القرآن لأزالوا منه سورة الشعراء[٤]، في تعبير عن عظيم كرههم لهم:[٥]

رفضـــوا الشـــعرَ جهـــدهمُ ورقـــوهُ   بينهُـــــمْ بالهـــــوانِ والازدراءِ

١. شعر أبي الحسين الجزار، ص١٦٩.
٢. شعر أبي الحسين الجزار، ص٢٧٩.
٣. ألطن: الذهب، ويرمُق: العطية، ويشمق: حجاب الوجه. انظر شعر أبي الحسين الجزار، ص٢٧٩ حاشية ١، فن الفكاهة والسخرية عند شعراء مصر المملوكية، ص٧٨.
٤. انظر أدب الصناع وأرباب الحرف، ص٢١٤.
٥. مسالك الأبصار، ٢٣/١٩.

فلـــو أنَّ الكتـــابَ كـــان بأيديـــ ـــهمْ محـــوا منـــه ســـورةَ الشـــعراءِ

ويعبّر الوراق في مقطوعة أخرى عن حيرته، وهو يرى أولئك الساسة يبعدون الأدب والأديب ويزدرونه:[١]

مـــا حيلتـــي والقـــومُ أصـــبحَ دأبُهـــمُ أن يرفضـــوا الأدبـــاءَ والآدابـــا

ويبلغ بغض حكام عصره ذروته حين يصوّرهم يفضّلون الموت على لقاء الشعراء حتى ولو كان أبا تمام أو البحتري، ويلقي الضوء على وضاعة الشعراء ومهانتهم حين عدموا من يقدّر المديح، ويعدّ ذلك عقوبة لهم على افترائهم، ولعلّه يقصد إطراءهم في المديح من لا يستحق الإطراء[٢]، ويتجلّى ذلك في قوله قاصداً الشعراء:[٣]

يـــروم حياتَـــه مـــا بـــين قـــومٍ لقـــاءُ المـــوتِ عنـــدهمُ الأديـــبُ
وربُّ الشِّـــعرِ ممقـــوتٌ بغـــيضٌ ولـــو وافـــى بـــه لهـــمُ حبيـــبُ[٤]

وقوله:[٥]

إذا قـــالَ لـــي قائـــلٌ كيـــف أنـــتَ؟ أقـــولُ رخيصـــاً فمـــنْ يشـــتري؟
ومَـــنْ يرغـــب اليـــومَ فـــي مدحـــةٍ ولـــو سُـــمِعَتْ مـــن فـــمِ البحتـــري
وإن حرمـــوني علـــى مدحِهـــم فتـــلكَ عقـــوبةُ مَـــنْ يفتـــري

١. المصدر نفسه، ٦٤/١٩.
٢. انظر أدب الصناع وأرباب الحرف، ص٢١٤.
٣. مسالك الأبصار، ٦٥/١٩.
٤. يقصد حبيب بن أوس الطائي أبا تمام.
٥. مسالك الأبصار، ١٧٥/١٩-١٧٦.

ويصوّر الورّاق عصره سوقاً، تجارةُ الشعر فيه بائرة، فظلّ هو فيها يعاني الفقر والحرمان المستمر، فلا مكان فيها لمادح يعرض شعره، وإن كانت قصائده كالعروس المهداة في جمالها وزينتها، وما ذلك إلاّ لأنها عدمت المشترين، ولهذا ظلّوا في أشعارهم ينادون على هؤلاء المشترين الذين يقدرون هذه البضاعة حقّ قدرها، ولا مُجيب:[١]

وإذا جَلَيْـــتُ اليـــومَ درَّ مـــدائحي   جُلبـــتْ لأســـواقٍ بغيـــرِ تجـــارِ
فيُحـــلّ ّ ُني الحرمـــانُ دارَ ندامـــةٍ   ويُحلُّهـــا الخســـرانُ دارَ بـــوارِ

ويقارن الورّاق بين الأغنياء قبل عصره، وأثرياء عصره، فأولئك كانوا يفتخرون بشاعر يمدحهم، فيثيبونه، ولكنّهم في عصره، منعوه، ولجّوا في المنع دون إبداء أسباب أو اعتذار، وهو يقصد بهؤلاء الأثرياء الساسة، فهم أصحاب السلطة والمال وقتذاك، يقول:[٢]

وكـــان النـــاس إذا مُـــدحوا أثـــابوا   وللكرمـــاء بالمـــدح افتخـــارُ
وكـــان العـــذرُ فـــي وقـــتٍ ووقـــتٍ   فصـــرنا لا عطـــاء ولا اعتـــذارُ

ومثل هذه المعاني تتجلى في شعر شمس الدين بن دانيال الكحال، فهو ما إن يجد ممدوحاً يكرمه، حتى يعبّر في مديحه عن شكره، وامتنانه له، وأنه هو الذي أنقذ شعره من الضياع والبوار، ويبدو ذلك في قوله:[٣]

لـولاه سـعرُ الشّـعرِ سـوماً مـا غـلا   إذ نُظّمـا مـن بعـد طـولِ بـوارِ

---

١. المصدر نفسه، ١٩/ ١٨٣.

٢. مسالك الأبصار، ٢٨٥/١٩.

٣. الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص٥٣.

وقوله:[1]

لـــــــولاكَ ضـــــــاعَ ثنـــــــائي وبـــــــار نظمـــــــي ونثـــــــري

ويستهجن في مقطوعة أخرى من أمراء عصره الذين يفرّون من وجه الشاعر المقبل عليهم، كيف يمكن لهؤلاء أن يواجهوا أعداء الأمة من صليبيين وتتار، ويعبّر عن حاله وهو يلاحقهم، وهم يفرّون منه، وعن وضاعة الشعور الذي كان يتملكه؛ إذ قال، وليعذرني القارئ على إيراد بعض ألفاظه، ولكنها مهمّة في وصف أحاسيس الذل التي كان يعانيها:[2]

مَـــــنْ لـــــم يُـــــلاقِ الشُّعَـــــرا وفـــــرَّ منهـــــم سَـــــحَرا
كيـــــف يلاقـــــي الـــــرومَ أم كيـــــف يُغـــــازي التتـــــرا
كـــــم رُمـــــتُ أن ألحقـــــهُ ففـــــرَّ منّـــــي وجـــــرى
فبالـــــــــذي يُبقيكُـــــــــمُ لـــــي يـــــا جميـــــعَ الأُمـــــرا
مَـــــنْ هـــــذهِ أوصافُـــــهُ باللـــــهِ مـــــا هـــــذا خـــــرا

وإخلاف المواعيد والكذب هو دأب أرباب السلطة في عصره، وهذا ما عبّر عنه ابن دانيال إذ لجأ إلى التورية، ليصور كذب الشعراء في مدائحهم، ثمّ كذب الساسة في العطاء[3]، يقول:[4]

قـــل للـــذين غَـــدَتْ جـــوائزُ مـــدحِهمْ رُقَعـــاً علـــى ذي عســـرةٍ مـــذّاقِ
جئنـــاكمُ بالكـــذْبِ فـــي أوراقـــنا فـــأجزتمُ بالكـــذْبِ فـــي الأوراقِ

---

١. المصدر نفسه، ص٧٠.

٢. المختار من شعر ابن دانيال، ص١٧٧، وانظر الرؤية الاجتماعية في أدب ابن دانيال الموصلي، ص٣٠٥.

٣. انظر أدب الصناع وأرباب الحرف، ص٢١٧.

٤. المختار من شعر ابن دانيال، ص١٨٧.

والشاعر هنا ينهج نهج الوراق إذ صوّر حال الشعراء البائسة جزاء لهم على تملّقهم وكذبهم، وهذا ما يحمله البيت الثاني.

واحتذى ابن نباتة في شكواه ونقده السياسي طريقة شعراء الحرفة السابقين، ويبدو من شعره أنّه لم يترك أحداً من كبراء عصره أو وزرائه وكتّابه إلاّ وحاول مدحه واستجداءه، فتارة كان يلقى القبول، وأخرى يهان ويحرم، فعبّر عن هذا الحرمان، وصوّر موقف السلطة من الأديب في عصره، والأذى الذي كانوا يلحقونه به فقال مورّياً، ومعبراً عن حيرته فيهم:[١]

مَـــنْ مُنصـــفي مـــن أنـــاسٍ   فيهـــم تحيّـــر ذهنـــي
لا درهمـــــاً وزنـــــوهُ   وحاولـــوا الشـــرَّ منّـــي
وهـــل ســـمعتُم بشـــعرٍ   يـــأتي علـــى غيـــرِ وزنِ

ويسخر منهم في مقطوعة أخرى سخرية ممزوجة بالألم، فيصور قلوبهم صخراً في قساوتها، ولكنّه يفضل الصخر عليهم، فهي تجيب صدى الصوت، ولكنهم لا مجيب له منهم، وجاء ذلك في إشادته بأحد أثرياء عصره الذين فتحوا له أبوابهم، فجعله كهف الشعراء الذي يفدون إليه، في وقت عدموا فيه الملجأ والمعين، يقول:[٢]

أنـت الـذي أحيـا القـريض وطالمـا   أمسـى رهـينَ عنـاً طريـدَ فنـاءِ
فـي معشـرٍ منعـوا إجابـةَ سـائلٍ   ولقـد يجيـبُ الصّـخرُ بالأصـداءِ
أسـفي علـى الشـعراءِ إنّهـمُ علـى   حـالٍ تثيـرُ شمـاتةَ الأعـداء
خاضـوا بحـورَ الشّـعرِ إلاّ أنّهـا   ممّـا تريـقُ وجوههـم مـن مـاءِ
حتـى إذا لجـؤوا إليـكَ كفيتهـم   شـجناً وقلـتَ أذلّـةُ العليـاء

١. ابن نباتة، الديوان، ص٥٣٠.

٢. ابن نباتة، الديوان، ص١٤، ولمزيد من الأمثلة انظر ص١٤، ٢٣، ٢٨، ٣٠، ٤٢.

فهؤلاء زعماء العصر المملوكي يفرّون من الشعراء، ولا يحتملون رؤيتهم، ويغضبون منهم، ويضربونهم، ولا يعتذرون لهم، ويمنعون عنهم العطاء، ويزدرون شعرهم، ولا يقدّرون مديحاً أو شعراً جميلاً، ولا شاعراً فحلاً حتى ولو كان من فحول الشعراء السابقين، وهذا سوق الشعر كاسد بائر، لا مكان فيه لشعر أو شاعر، لأدب أو أديب. ومن هنا يكون لهم عذرهم إذا ما وجدوا من يستمع إليهم ويثيبهم، فيتمسكون به، ويبثونه أشجانهم وأحزانهم، ووضاعة منزلتهم.

أسباب هذا الموقف:

لم يترك الشعراء المتلقي في حيرة من أمره، فقد وقفوا وهم يرسمون صورة لموقف ساسة عصرهم من الأدب والأدباء عند الأسباب التي كانت وراء ذلك، ولعلّ صفة البخل التي تحلّى بها أرباب الدولة المملوكية، وحرصهم على جمع الأموال وكنزها كانت في مقدمة تلك الأسباب، وقد رسموا صوراً كاريكاتورية ساخرة لحالة البخل تلك، فالشاعر أبو الحسين الجزار يفسّر لممدوحه سبب عودته إلى حرفة الجزارة وتركه الاستجداء بالشعر، بأنّ هذه الحرفة لها فضل عليه إذ صارت الكلاب ترجو فضله وتلاحقه، وكان هو قبل ذلك يلاحق الكلاب من ساسة عصره ويرجوهم في إشارة منه إلى دناءتهم وخستهم وبخلهم[1]، يقول:[2]

لا تلمني يا سيّدي شرفَ الدينِ إذا ما رأيتني قصّابا
كيف لا أشكرُ الجزارةَ ما عِشـ ـتُ حفاظاً وأرفضُ الآدابا
وبها صارت الكلابُ ترجّيـ ـني وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ومثل ذلك قوله:[3]

---

١. انظر فن السخرية والفكاهة عند شعراء مصر المملوكية، ص٧٩.
٢. شعر أبي الحسين الجزار، ص٦١.
٣. المصدر نفسه.

لا تعبنـــــي بصنعـــــةِ القصّـــــابِ فهـي أذكـى عنـدي مـن عنبـرِ الآدابِ
كـان فضـلي علـى الكـلابِ فمـذ صـر تُ أديبـاً رجـوتُ فضـلَ الكـلابِ

ويرميهم في موضع آخر باللؤم والبخل، وهي الصفات التي دفعتهم إلى إهمال الشاعر، حتى أوهموه أن ما يقوله شعر هجاء لا مديح، يقول مخاطباً ممدوحه، وباثّاً إياه لواعجه وأحزانه:[١]

أيهـــذا الـــرئيسُ دعـــوةَ عبـــدٍ أصـــبحَ الحـــزنُ دأبَـــهُ والبكـــاءُ
مـــات فقـــراً وأصـــلُ ذلـــكَ إذ مـــا تـــتْ مـــن اللـــؤمِ أنفـــسٌ وحيـــاءُ
أبعـــدوني مخافـــةَ الشُّـــكرِ حتـــى أوهمـــوني أنَّ المـــديحَ هجـــاءُ

ويجعل الشاعر البخل والمنع دأب سادة عصره، لا مكان عندهم لشاعر، ولهذا يدعو ممدوحه إلى إعانته وإنقاذه من هؤلاء اللؤماء، الذين ارتفعت منزلتهم بالمال، وإن كانوا في أصلهم وضيعين، يقول:[٢]

بـين قـومٍ قـد صيّـروا المـنَّ والمـ ـنعَ لهـم فـي الزّمـانِ دأبـاً وملّـهْ
فاغننـــي عـــن ســـؤالِ كـــلِّ لئيـــمٍ قـــد عـــلا قـــدرُهُ وإن كـــان سِفلـــهْ
معشـرٌ مـا ظَفِـرتُ مـنهم عقيـبَ الـ ـقصدِ عنـد السـؤالِ إلاّ بخجلـهْ

وتتجلى المعاني السابقة بجلاء في قوله مصوّراً عصره وقد درست منه سمة الجود وإكرام الأديب، حتى صار مذهب ساسته البخل، وكنز الأموال والذهب:[٣]

أهـــــــانَ عـــــــزَّ الأدبِ فـــــي الـــــدهرِ ذلُّ الطلَـــــبِ
وأصـــــبح الجـــــودُ حديـــــ ـــــثاً يُفتـــــرى فـــــي الكتـــــبِ

١. المصدر نفسه، ص٤٨.
٢. شعر أبي الحسين الجزار، ص٣٧، وانظر فن السخرية والفكاهة عند شعراء مصر المملوكية، ص٧٢.
٣. شعر أبي الحسين الجزار، ص١٠٩. ولمزيد من الأمثلة انظر ص٩١، ١٥٥، ١٦٩.

لـــــي زمـــــنٌ مـــــا فيـــــهِ غيـــــ ـــــر المنـــــعِ بعـــــدَ التعـــــبِ
بـــــين أنـــــاسٍ يحســـــبو ن المـــــالَ أعلـــــى الحســـــبِ
مـــــذهبهمْ بـــــين الـــــورى بالبخـــــلِ جمـــــعُ الـــــذَّهبِ

وسوق الشعر عند الوراق أقوت وأقفرت، وأضحت أطلالاً دارسة، وذلك "لوحشتها من الكرماء"[١]، ولهذا تحتاج من يبكيها. ويصوّر في رجز أنّ أموال الساسة صارت محرّمة على الشعراء، وما ذنبهم إلا قولهم شعر المديح، ولهذا لا فائدة منه في وقته، يقول موظفاً مصطلحات البديع:[٢]

درهمُهم على الدوامِ يُحرَمُ
تُقطع يا هذا بذا وتُجرَمُ
فمدحُهمْ لزومُ ما لا يلزمُ

ويقرن الشاعر نفسه بخل أرباب الحكم بنهر سيحون وقلّة تدفّقه إذ قال:[٣]

عهـــدتُ لإنعـــامِ الملـــوكِ تنوّعـــاً إذا لجميـلِ القصـدِ مـن برِهـا تجـري
فمـــا بـــالهم فـــي ذا الزَّمـــانِ تســـافلٌ إلى أن غدو بخلاً كسيحونَ في الجرِّ

وشارك شمس الدين بن دانيال في تصوير بخل سادة عصره، حتى عدم من يتوجّه إليه بشعره، يقول:[٤]

أنـــــا إلاّ ذاكَ المكـــــدِّي بالشِّعـــــ ـــــر وأيـــنَ الكـــرامُ حتـــى أكـــدِّي؟

---

١. مسالك الأبصار، ٣٢/١٩.
٢. المصدر نفسه، ٢٦٩/١٩.
٣. مسالك الأبصار، ٤٠٩/١٩.
٤. المختار من شعر ابن دانيال، ص٢٣٨.

ويصوّر في مقطوعة أخرى إخلافهم المواعيد لبخلهم، ويستحضر الصورة التي رسمها القرآن الكريم للشعراء، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ليسقطها عليهم[١]، فيقول:[٢]

مَنْ مُنصفي من معشرِ ألبستُهم مدحي وظنّي أنّهم كبراءُ
قالوا وما فعلوا لبخلٍ فيهمُ فكأنّهم كانوا هم الشعراءُ

وقريب من تلك المعاني عبّر عنها الشاعر جمال الدين ابن نباتة[٣]. وأضاف إلى ذلك أنّ سادة عصره كان كلّما جاءهم ليسألهم رزقه، تخلّوا عنه لبخلهم، وطلبوا إليه أن يلتمس قيادة جديدة يعيش في أحضانها، كما يبدو في قوله "وقد وُعد بإرسال راتبه مع وفود العرب"[٤]:

تركتَني بالوعودِ أسعى وما على حالتي سعادهْ
وكلُّ قودٍ سألتُ منهُ يقول لي: رح بلا قيادهْ

ويرجع الشعراء عزوف أرباب السلطة عن شعر المديح إلى قلّة ذوقهم، فكثير منهم كان غير قادر على فهم الشعر وبلاغة الخطاب العربيّ، وهو ما دعا أبا الحسين الجزار إلى تصوريهم **بقراً** يفرّون من الشاعر الجزار[٥]، وجعل الوراق ينعتهم **حميراً** في قوله:[٦]

طلبتُ جواداً فامتدحتُ مبلّداً **حماراً** فألجاني لبيع حماري

---

١. انظر أدب الصناع وأرباب الحرف، ص٢١٧.
٢. المختار من شعر ابن دانيال، ص٢٣٠.
٣. انظر ديوان ابن نباتة، ص٥٨، ٨١، ٣٢٠.
٤ . السابق نفسه، ص١٦٤.
٥ . انظر ص ٢٦ من البحث.
٦ . مسالك الأبصار، ١٧٨/١٩.

فـــأنزلني الحرمـــانُ دارَ ندامـــةٍ وأنـــزل أشـــعاري بـــدارِ بـــوارِ

ومثل هذا المعنى تجلّى في شعر ابن شوّاق الأسنائي[1]، الذي صوّر سادة عصره "بالحمير التي تحتاج إلى الشعير وليس الشعر، ولا يفهمون إلاّ بالصفير، لا الكلام؛ ولذا فالمدح والهجاء واحد عندهم، لا هذا يؤثّر فيهم ويهزّهم للجود، ولا ذاك يغضبهم ويدفعهم لاتّقائه، فالأديب عندهم خاسر منبوذ، ولو كانوا قضاة أو أمراء، لأنّهم لا يفقهون الأدب، ولا يقدّرون قيمته، ولا يتذوّقون جماله"[2]، يقول[3]:

مـن بنـي الـدّهرِ عصـبةٌ كـالحميرِ دع الشـــعرَ والقهـــم بالشّـــعير
لا تخـــاطبهم جهـــاراً إذا مـــا رُمـتَ أن يفهمـوا بغيـر الصـفير
ودع المـــدحَ والهجـــاءَ فمـــا للـــ ـــمدحِ والهجـوِ فـيهم مـن تأثيـر
خسـرتُ صـفقةَ الأديـبِ وخابـتْ عنـد قاضـيهم وعنـد الأميـر
قـل لمـن يـدّعي الفضـيلةَ مـنهم لسـتَ فـي العيـرِ ولا فـي النفيـر

ورماهم الشعراء **بالظلم والتمييز بين أفراد الشعب في توزيع الثروات**، وهو ما جعلهم يهملون شريحة كبيرة منه، ومنهم الشعراء، ويتجلى ذلك في قول أبي الحسين الجزار موريـاً بسور القرآن الكريم، وموظفاً الدهر علامة على ساسة عصره:[4]

أشـكو لعـدلِكَ جَـوْرَ دهـرٍ جـائرٍ فَضُـلَتْ بـه فضـلاءه الجهـالُ
مُنعـتْ بـه عقـلاؤهُ إذ قُسِّـمتْ بـالجَورِ فـي أنعامـهِ الأنفـالُ

١ . داود بن الحسن بن منصور، كان أديباً فقيهاً، توفي سنة ٧٠٦هـ. انظر الأدفوي، الطالع السعيد في أخبار نجباء الصعيد، ص٢٤١.

٢. أدب الصناع وأرباب الحرف، ص٢١٨.

٣. الطالع السعيد، ص٢٤٨.

٤. شعر أبي الحسين الجزار، ص١٠٥، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٣٣٨/١.

وهذه الأسباب جميعها: البخل، وقلّة الذوق، والظلم وانعدام الأمانة، وكره الشعراء، هي التي جعلت الشاعر زين الدين بن الوردي يعزف عن أبواب كبراء عصره، إذ قال ملخصاً مأساة شعراء عصره، ومبيّناً رأيه في ساسته:[١]

جرّبتُ أهلَ زماني واختبرتُ **فلمْ** **أجدْ كريماً** ولا عوناً على الحَرَجِ
ولا محبّاً لذي فضلٍ ولا ثقةٍ **ولا أميناً ولا عدلاً** على العوجِ
ولا مُصيخاً إلى مدحٍ إذا مُدحوا ولا كريماً يخافُ الهجوَ حيثُ هجي
من أجلِ ذلكَ قد جانبتُ أكثرَهمْ وقلتُ يا أزمةُ اشتدي لتنفرجي
فإنّهم عن سبيلِ الحقِّ قد عَرَجوا فاعذرْ **فليس على العرجانِ من حرجِ**

نتائج هذا الموقف:

إن هذا الإهمال الذي عاشه هؤلاء الشعراء والأدباء في ديارهم في العصر المملوكي، ترك نتائجه وبصماته الواضحة في حياتهم ونفوسهم وحياة أسرهم، وقد عبّروا عن هذه النتائج في أشعارهم، فقدموا معاني مختلفة، وصوراً ممزوجة بالسخرية والمعاناة، وفي مقدمة هذه النتائج الفقر الذي كان علامة على حياتهم، فجعلهم شحاذين يتسولون على أبواب الأثرياء، ويريقون ماء وجوههم، فهذا ابن الوردي يصور بؤس شاعر من أبناء عصره دفعه إلى محاولة الغش، إذ ذهب إلى أحد الخبازين ليشتري خبزاً بنقود زائفة، فاكتشفه الخباز، فاعتذر الشاعر بما يشير إلى مقولة: يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره، في قوله[٢]:

شاعرٌ أخرَجَ نصفاً زغلاً[٣] عندَ خبّازٍ فلمّا أن عُرفْ
قيل: هذا جائزٌ قال: نعم يصرفُ الشاعر ما لا ينصرفْ

١. ديوان ابن الوردي، ص٢٤٥.
٢. ديوان ابن الوردي، ص٢٤٣.
٣. مصطلح شاع في العصور المتأخرة، ويعني النقود المغشوشة المزيّفة.

ويمدح الجزار جمال الدين موسى بن يغمور[١]، ليشكو له حرمانه الذي أورثه إياه شعره وحرفته يومذاك، فيستغل قصص القرآن الكريم، واسم ممدوحه موسى، ليطلب إليه أن يخلّصه من فقره الذي صوره فرعوناً في سطوته على حياته[٢]:

يـــا أميـــراً يُخشـــى ويُرجـــى لبـــأسٍ ونـــوالٍ فـــي يـــومِ حـــربٍ وســـلمِ
أنـــت موســـى قـــد تفـــرعنَ ذا الخـــ ـــطبُ فغرّقـــهُ مـــن نـــداكَ بيـــمِّ
لا تكلنـــي إلـــى ســـواكَ فمـــا أصـــ ـــنعُ إلاّ لـــديكَ نثـــري ونظمـــي
لـــي مـــن حـــرفةِ الجـــزارةِ والآ دابِ فقـــرٌ يكـــادُ ينســـيني اســـمي

فالشاعر لا مكانة له إلا عند ممدوحه هذا، ولا يصنع لغيره شعراً ونثراً، لأنّ غيره لا يأبهون له، أو يكافئونه عليه. وإن كانت هذه الشكوى والسخرية عند الجزار، كما يقول محمود الجريدلي، "نوعاً من التحامق والتظرّف في سبيل خدمة غرض أساسي يلحّ عليه، وهو الشحاذة"[٣]، فإنّ ذلك لا يمنع أنّه يعبّر عن حقيقة واقعة، ومأساة عاشها هو وأمثاله من الشعراء، بدليل إجماعهم في شعرهم على هذه الطريقة في الشكوى، وانتقاد السلطة الحاكمة.

ويسخر في موضع آخر من مهنة الشعر، التي جعلته معدماً في أكثر أيام المسلمين بهجة، وهو يوم العيد:[٤]

مـا بـات فـي ذا العيـدِ يملـكُ درهمـاً وكفـاكَ أنّ الشـعرَ أعظـمُ كسـبِهِ

وهذه الحالة المزرية دفعت الوراق أن يطلب القليل لتسير حياته؛ إذ قال مخاطباً أرباب عصره، مصوّرا شدة فقره:[١]

---

١. "ولد بصعيد مصر بقرية ابن يغمور، من أعمال قوص، سنة٥٩٩هـ، وتولى وتنقّل في الولايات، مثل نيابة السلطنة بالقاهرة، ونيابة دمشق، ولم يكن من الأمراء من يضاهيه في منزلته وشجاعته، وقربه من الملوك، وجواداً ممدّحاً"، توفي سنة٦٦٣. النجوم الزاهرة، ٦١٨/٧.

٢. شعر أبي الحسين الجزار، ص٣١.

٣. شعر أبي الحسين الجزار دراسة فنية تحليلية، ص٢٣٠.

٤. شعر أبي الحسين الجزار، ص٨٥.

ولــي قلــمٌ فــي عصــركم جــفَّ ريقُــهُ ويكفيــهِ مــن دنيــاهُ نغبــةُ طــائرِ

ولا يفتأ ابن دانيال يربط بين فقره، وكساد سوق الشعر في عصره، فهو يصوّر أهله وأسرته وهم يطلبون إليه اللحم في عيد الفطر، فيدعوهم أن يتخيّلوا ذلك اللحم ليأكلوه، وقد أثار هذا الكلام حفيظة ابنته وابنة عمّه، فرحن يسألن عن سبب هذا الحرمان، أسببه الاستمرار في الصوم؟ أم قطيعته أرحامه؟ أم حفاظاً على صحة أسرته وأقربائه من أكل اللحم والشحم؟ أم إهمال الشعر والشعراء؟، يقول في سخرية لاذعة:[٢]

فقلـــــتُ إذ طـــــالبتني أهلـــي بلحـــمٍ وشـــحمِ
قومـــوا كلـــوني فـــإنّي فـــي البيـــتِ قطعـــةُ لحـــمِ
تقـــول بنتـــي لأختـــي وبنـــتُ عمِّـــي لأمّـــي
تـــرى الحكـــيم حمانـــا التزفيـــرَ دفعـــاً لســـقمِ
أم ذاكَ واصـــلُ صـــومٍ أم ذاك قـــاطعُ رحـــمِ
أم لـــيس للشـــعرِ ســـعرٌ والرَّسْـــمُ أقـــوى كَرَسْـــمِ

وحال ابن نباتة المزرية دعته إلى أن يطلب إلى سادة عصره ألاّ ينظروا إليه هو بعين العطف والشفقة، فهو ميت لا محالة، وإنما يدعوهم أن يرحموا عياله الأيتام بعده في الشام، وأن ينقذوهم من الموت جوعاً، ويتجلى ذلك في قوله:[٣]

إن مـتُّ مـن جـوعٍ بمصـر فحسـرةٌ إن مـــات أولادي بجـــوعِ الشـــامِ
قـــل للـــوزيرين الرّفيـــعِ ســـناهما لا ترحمـــاني وارحمـــا أيتـــامي

وانتقد أرباب المساخر موقف أرباب الحكم من الشعر والشعراء، وبينوا نتائج هذا الموقف، وذلك في تمثيليات خيال الظلِّ التي كانوا يستمدون موضوعها من واقعهم، ويمزجونها بروحهم الفكهة الساخرة عند كتابتها، ثم يمثلونها للشعب على مسرح خيال

---

١. مسالك الأبصار، ١٨٤/١٩.

٢. المختار من شعر ابن دانيال، ص٦٩-٧٠.

٣. ديوان ابن نباتة، ص٤٧٧.

الظلّ، فهذا علاء الدين المغربي[١] بيّن في رسالة **النيربين** "وهي رسالة لطيفة ظريفة"[٢]، أنّ الشاعر يعيش "**في زمان لا فرق فيه عند أهله بين القادح والمادح**"[٣]، ولهذا صار ذليلاً، واضطر إلى التسوُّل، وإذا شعر بالجوع أو العطش أكل شعره، وشرب من بحوره، يقول معبراً عن ذلك على لسان أحد الشعراء: "**وهل أنا إلاّ شويعر مخارف مسخرة، قد جعل رسائله وسائله، وقصائده مصائده، يستحلب ضرعَ الضراعة، ويميط قناع القناعة، إن جاع أكل من تقطيع الأعاريض، وإن عطش، شرب من بحور القريض**"[٤].

ونتج عن موقف السلطة من الشاعر أن تقدّم الجهال عليهم، وأضحوا أهل الخيل والبغال والحمير، والثياب الفاخرة، وهي علامة الطبقية في ذلك العصر، في حين ظلّ الشعراء فقراء محرومين، فأطلقوا صرختهم المدوية الأليمة المعبّرة عن هذا الظلم، وهذا ما عبّر عنه صراحة الجزار:[٥]

أنا فيهم عارٍ وماشٍ وغيري وهو دوني له ثياب وبغلهْ

ويتجلّى في قول ابن الوردي:[٦]

أهل الفضائل والآدابِ قد كسدوا والجاهلون فقد قامت لهم سوقُ

وأكثر الشعراء من الحديث عن الذلِّ الذي عانوه، وشعروا به عقب إهمالهم، وهو ذلّ ووضاعة رأوها، وهم يرجون السلطة الحاكمة، ويحاولون طرق أبوابها، فأبو الحسين الجزار يصور ما يعانيه من حجاب الأمراء، حين كان يذهب لمديحهم

---

١. ذكره ابن أبي حجلة في ديوان الصبابة، وكل ما ذكر عنه أنّه من أرباب المساخر، وصاحب رسالة النيربين، ويعني تمثيلية بمفهوم عصرنا، وذكر جزءاً منها. انظر ديوان الصبابة، ص١٤٠-١٤١.

٢. ديوان الصبابة، ص١٤٠.

٣. المصدر نفسه، ص١٤١.

٤. المصدر نفسه، ١٤٠.

٥. شعر أبي الحسين الجزار، ص٣٧.

٦. ديوان ابن الوردي، ص٢٧٨.

أو لقائهم، وطلب عطاياهم، فقد كانوا يؤذونه، ويمنعونه الدخول، ويبيّن الشاعر أنّ ذلك ليس من طبعه، ولكنّ شدة الحاجة دفعته إلى قصدهم، يقول:[١]

أمــولايَ مــا مِــنْ طبــاعي الخــروجُ ولكـــنْ تعلّمتُـــهُ فـــي الخمـــولِ
وصِـــــرتُ أرومُ لـــــديكَ الغنـــــى فيُخرجنـــي الضـــربَ عنـــد الـــدخولِ

ويبلغ إحساس الشاعر ابن نباتة بوضاعة منزلته في أثناء مرضه، فلم يزره أحد من كتاب السلطة، وهو الذي كان يعود كلابهم إذا مرضت، يقول ساخراً:[٢]

قــل للكــرامِ الكــاتبينَ مــن الــورى مــا لــي أُجــرِّبُ عهــدَكُمْ وأعــودُ
مــا لــي مرضــتُ فلــم يعــدني عائــدٌ مـــنكمْ ويمـــرضُ كلـــبُكمْ فـــأعودُ

إنّ حياة الفاقة، والذل والخمول والإهانة، التي عاشها شعراء العصر المملوكي جعلتهم يشعرون بالغربة في ديارهم، ويدعون إلى الرحيل عن ديار لا مكانة لهم فيها، وبرز ذلك بجلاء في شعر الجزار "وهو أسلوب له طعم مختلف في أساليبه..، فالشكوى من ضياعه في مجتمع جاهل لا يعترف ولا يقدّر قدراته، إنما هو لون من الفخر ردّده في شعره"[٣]، فهو يقول موريا:[٤]

فـــإن لامَ الجهـــولُ أقـــولُ دعنـــي أنـــا فـــي ضـــيعة فـــي وســـط مصـــرِ

ويصف الشاعر رحيله عن مصر هرباً من أسافلها، بحثاً عن أناس يقدرونه، ويحتفون به:[٥]

ترحلـــتُ عـــن بلـــدي رحلـــةً تبلّغنـــي رتبـــةً لـــم تنـــلْ

١. شعر أبي الحسين الجزار، ص٦٥، ١٤٧.
٢. ديوان ابن نباتة، ١٦٣.
٣. شعر أبي الحسين الجزار دراسة فنية تحليلية، ص٢٦١.
٤. شعر أبي الحسين الجزار، ص59.
٥. شعر أبي الحسين الجزار، ص87 –٨٨.

وترفـــعُ لـــي رتبـــةً فـــي الســـماءِ وتشـــغلني عـــن مـــديحِ السَّـــفَل
فـــإنّي فـــي مصـــر فـــي ضـــيعةٍ فقـــل فـــي مقـــيمٍ بهـــا قـــد رحـــل

وبلغ الأمر بالجزار أن يستهجن من الأديب المهان المعدم المقيم في بلده إذ قال:[١]

أيقـــيمُ فـــي أوطانِـــهِ متـــأدِّبٌ مـــا خلفَـــهُ مـــالٌ ولا قدّامَـــهُ

ويرسم ابن نباته صورة أخرى لضياعه في عصره، إذ صور نفسه يتيماً، يحتاج إلى من يرعاه، ويقف إلى جانبه، إذ قال:[٢]

لهفـــي لشـــعرٍ بـــارعٍ نظّمتُـــهُ تحتـــاج بهجتُـــهُ لرِفـــدٍ بـــارعِ
درٌّ يتـــيمٌ قـــد تضـــوَّعَ نَشـــرُهُ يـــا مَـــنْ يـــرقُّ علـــى اليتـــيمِ الضـــائعِ

ونتج عن الشعور بالضيق والوضاعة أن تمنى الشعراء الموت على الحياة، ومنهم شمس الدين ابن دانيال الكحال، الذي تمنّى أنّه لم يخلق، لأن العزة التي كان يشعر بها، تمنعه من أن يرضى الحياة، وهو يرى مَنْ هم دونه يسمون عليه، ويتفوّقون، ويتحكمون برقبته ورقاب العباد، يقول:[٣]

لـــولا الشـــقاوةُ مـــا وُلِـــدتُ وليتنـــي إذ كـــان حظِّـــي هكـــذا لـــم أولـــدِ
ولكيـــفَ أرضـــى بالحيـــاةِ وهمّتـــي تسمو وحظِّي في الحضيضِ الأوهدِ
وأرى الســـعادةَ قـــد أُحلَّـــتْ معشـــراً رَبَـــتِ العـــلا لا بـــالنُّهى والســـؤددِ

ودفعت الجزار أن يتمنى أنه لو لم يكن جزاراً أو شاعراً:[٤]

واللحـــــمُ يقـــــبُحُ أن أعـــــو دَ لبيعِـــــهِ والشـــــعرُ بـــــائرْ
يـــــا ليتنـــــي لا كنـــــتُ جـــــزّا راً ولا أصـــــبحتُ شـــــاعرْ

١. المصدر نفسه، ص١٠٢.
٢. ديوان ابن نباتة، ص٣٢٠.
٣. المختار من شعر ابن دانيال، ص١٥٦.
٤. شعر أبي الحسين الجزار، ص٩٦، المغرب، ٣٣١/١.

وبعد، فإنّ هذه هي حال طبقة من المثقفين في العصر المملوكي، وهذه هي معاناتهم التي جسّدوها بكلماتهم، وعبّروا عنها بصورهم الفنية، وأساليبهم المتنوعة. ولا بد هنا من تسجيل بعض الملاحظات حول أساليبهم الفنية، وهي:

١- كان خطابهم موجهاً إلى الشعب الذي ارتدوا إليه، وعايشوه وهم يعاركون حرفهم، فجاءت لغتهم سهلة، قريبة من أساليب العامة في خطابها، ووظّفوا الألفاظ التركية في تصوير موقف الحكام من الأديب.

٢- تميّزت أشعارهم بالألم الممزوج بالسخرية من الذات، وأرباب العصر. وهذه سمة الشعر في ذلك العصر، فأينما "وليت وجهك في دواوين شعراء العصر، ومؤلفاتهم التي ضمّت أشعارهم، وجدتهم يُضحكون معاصريهم على حكامهم وساستهم ضحك سخرية تارة، ومزاحاً ودعابة تارة أخرى"[١].

٣- برزت فيه الفنون البديعية بجلاء، ومنها التورية، التي اعتمدوا عليها ليتواروا خلفها وهم ينقدون حكام عصرهم، والتورية، أسلوب رمزي، تشيع في عصور الظلم والقهر والاضطهاد، تعين الأديب على الإفلات من العقاب. ووظفوا الكناية أو الرمز بالمصطلح الحديث للغرض ذاته، فأكثروا من الترميز بلفظة الدهر للتعبير عن ساسة المماليك، وأهل الفضل للتعبير عن المثقفين. واستخدموا مصطلحات العلوم والفنون.

٤- اعتمدوا على عنصر التصوير في التعبير عن معانيهم التي أرادوا إيصالها إلى المتلقين.

٥- تميّزت بالتجربة والمعايشة، فهم يعبّرون عن وضع عاشوه، واكتووا بناره.

---

١. فن الفكاهة والسخرية عند شعراء مصر المملوكية، ص٢٢.

٦- وظفوا التناص الديني، فتأثروا بالقرآن الكريم والحديث الشريف، واتكؤوا على التراث، فاستوحوا الشخصيات الشعرية السابقة مثل البحتري وأبي تمام.

٧- وبرزت في أشعارهم أساليب الاستفهام والتعجب بجلاء.

وقبل الختام فإن الباحث يستهجن النتائج التي وصل إليها ياسين الأيوبي في بحثه الموسوم بـ "الشعر والسلطة في العصر المملوكي"، فهو يقول: "إنّ هناك نقلة نوعية حدثت لشعراء هذا العصر وكتّابه، بحيث لا نكاد نجد واحداً منهم لم يكن في أعلى الوظائف، ومُلقّباً بأحسن الألقاب، كالأمير، والرئيس، والصاحب، وغيرها، مما لم نعهده مع معظم شعراء بني العباس، ولا بني أمية، على عظم هؤلاء، وطول باعهم الشعريّ والسياسيّ، وكلّه يؤكّد على المكانة التي عرفها شعراء المماليك، وتقدير السلاطين والأمراء لعلمهم وأدبهم"[١].

ويمكن الردّ عليه في الآتي:

١- إن الأشعار الواردة في هذا البحث تناقض النتائج التي توصّل إليها ياسين الأيوبي.

٢- إن منهج الأيوبي الذي اتبعه في الوصول إلى نتائجه غير دقيق، وسبب ذلك:

أ- أنّه توصّل إلى نتائجه حين تحدث عن المكانة الرفيعة التي حظي بها ابن نباتة في مملكة حماة الأيوبية، وصفي الدين الحلي عند ملوك بني أرتق في ماردين. ومعلوم أنّ الأيوبيين في حماة كانوا يتمتعون بحكم ذاتي في ظل الدولة المملوكية، وكان ذلك مكافأة لهم على وقوفهم إلى جانب قطز في معركة عين جالوت سنة٦٥٨هـ، التي خاضها ضد المغول، وانتصر فيها عليهم، واستمرت تلك المملكة، وملوكها يسيرون على خطى الأيوبيين في رعاية الشعراء، وكانوا كهفهم

١. ياسين الأيوبي، الشعر والسلطة في العصر المملوكي، ص٣.

الذي يأوون إليه هرباً من إهمال المماليك، فهو في بحثه يخصص ولا يعمّم، فلا ينبغي أن تكون نتائجه تعميماً على حال الشاعر إبان الحكم المملوكي. وبخاصة أنّ ابن نباتة الذي استشهد بوضعه ليكون دليلاً على العلاقة المميزة بين الشعراء والسلطة المملوكية، هو من أكثر الشعراء شكوى في عصره. أمّا ملوك بني أرتق، فلم يكونوا ضمن دولة المماليك، فكان حكمهم في ماردين، لا علاقة له بمصر والشام، وكان الشعر وسيلة لبقائهم، وتثبيت دعائم حكمهم.

ب- أنّه استشهد بالشعر الذي قيل في مديح المماليك، وعدّه دليلاً على العلاقة الرفيعة بين الشاعر وبلاط المماليك. ولكن ذلك ليس دليلاً على هذه العلاقة، فمعلوم أن معظم تلك الأشعار قالها الشعراء في مديح المماليك، تخليداً لبطولاتهم في مواجهة الصليبيين والمغول، فمدحهم لهم كان شعوراً دينيّاً، وعلامة إعجاب بجهودهم التي بذلوها في حماية الأرض والإنسان والدين في ذلك العصر، ولا تدلّ بأي حال من الأحوال على العلاقة المميزة التي جمعت الشاعر بأرباب الحكم المملوكي.

ج- خرج الباحث في منهجه عن حدود الدولة المملوكية، فاستشهد بحال الشعراء في الدولة الأيوبية في ظلّ الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم في ظلّ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، آخر ملوك الأيوبيين في الشام، وكان هذا الرجل شاعراً، يقرّب الشعراء، ويجالسهم، ويغدق عليهم الأموال، فكثروا في بلاطه[1]، فكان عصره امتداداً لاهتمام بني أيوب بالشعر والشعراء.

د-أنّه لم يورد في بحثه اسم شاعر كان بلاط المماليك لا الأيوبيين مأوى له.

---

١ - أشرفت على رسالة ماجستير أنجزت، وعنوانها "الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز ٦٣٤-٦٥٨هـ"، إعداد: فادي خطاب، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠١٠م.

نتائج البحث

بعد هذه الجولة في الأدب الذي انتقد موقف السلطة المملوكية الأولى من المثقف عالماً وأديباً، يمكن تسجيل النتائج الآتية:

١- تنوعت الفنون الأدبية التي تناولت هذا الموضوع، فكان منها: الشعر، والرسائل، والنثر التأليفي، والسير الغيرية، وتمثيليات خيال الظلّ. وشارك في هذا النقد علماء اشتهروا بعلومهم، وشعراء احترفوا الشعر، وبخاصة أرباب المهن والحرف.

٢- تعددت مظاهر النقد في هذه الفنون، فقد انتقد الأدباء سياسة الإهمال المقصود التي مارسها حكام المماليك بحق العلماء، ومنها إهمالهم في أرزاقهم، ومحاربتهم فيها، فقد حرموهم التدريس في غير مدرسة، وتركوهم يتضورون جوعاً، واستولوا على الأوقاف الخاصة بالإنفاق عليهم، وباعوهم المناصب بالرشوة. وكانوا يمنعونهم من ركوب الخيل، ولبس الثياب الفاخرة، وجعلوهم فضلة عند توزيع الأرزاق، وهذا الفقر دعا الأدباء والناس إلى الربط بين العلم والفقر، فكلما ازداد علم الرجل ازداد فقره، ودفع هذا الوضع بعض الأدباء والعلماء إلى الندم على إنفاقه حياته في تحصيل العلوم والفنون. وانتقد الأدباء سياسة التهميش والاحتقار والاستبعاد التي مارسها ساسة المماليك، وبيّنوا أن الموقّر عندهم الذي يريق ماء وجهه على أبوابهم، وصوروا سعادتهم وهم يذلّون المثقفين. وكشف الأدب عن سياسات التنكيل التي اقترفها حكام المماليك بحق بعض العلماء، وتراوحت بين التوبيخ، والتعذيب، والسجن، والقتل.

٣- وأكثر الأدب من الحديث عن حال الأديب البعيد عن سياسة القصر المملوكي، وبرز ذلك بجلاء في شعر أرباب الحرف الذين أوصدت أبواب الحكام في وجوههم، فعادوا إلى حرفهم ليعتاشوا منها، وإلى الشعب ليعبروا عن مأساته

ومأساتهم. وقد رسم هؤلاء وغيرهم صورة ساخرة ممزوجة بالألم لموقف سادة العصر المملوكي منهم، ومن أدبهم، وانتقدوا هذا الموقف، ووقفوا على أسبابه ونتائجه.

٤- أرجع الأدباء موقف السلطة من المثقف في العصر المملوكي عالماً وأديباً إلى غير سبب، وهي الجهل، والحسد، وسوء الظن، والبخل، وقلة الذوق، والعنصرية، والبطش والقسوة.

٥- وظّف الأدباء أساليب متعددة في نقد السلطة المملوكية، فقد جاءت لغتهم سهلة، فيها ألفاظ غير عربية من اللغة التركية، وبرزت في أشعارهم أساليب السخرية، والفنون البديعية وبخاصة التورية، وأساليب التصوير، ومصطلحات العلوم والفنون، والأثر الإسلامي، واستحضار التراث، هذا فضلاً عن التجربة والمعايشة، والقصص الواقعي، وأساليب الاستفهام والتعجّب.

المصادر والمراجع

المصادر:

- الأدفوي، كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب، الطالع السعيد أسماء نجباء الصعيد، تحقيق، سعد محمد حسن، مراجعة: طاهر حاجري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.

- البزار، عمر بن علي، ١٤٠٠هـ، الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، حققه: زهير شاويش، ط٣، المكتب الإسلاميّ للطباعة والنشر، بيروت.

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شلتوت، ط٢، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٩٨م.

- نفسه، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الجزء الثامن، حققه: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

- نفسه، النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، ط١، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

- ابن حبيب، بدر الدين بن عمر الحلبي، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، الجزء الأول، حققه ووضع حواشيه: محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م.

- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح: محمد شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١م.

- نفسه، كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام، المطبعة الأنسية، بيروت، ١٣١٢هـ-١٨٩٤م.

- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ضبطه وصححه: الشيخ عبدالوارث محمد علي، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

- ابن أبي حجلة التلمساني، ديوان الصبابة، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر.

- ابن دانيال، شمس الدين محمد الموصلي الكحال، المختار من شعر ابن دانيال، حققه وعلق عليه واستدرك: محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، الموصل، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي، ط٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

- نفسه، معيد النعم ومبيد النقم، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

- ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن، المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، عني بنشره وتحقيقه والتعليق عليه : زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وإسماعيل الكاشف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م.

- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء: أحمد حطيط، يطلب من دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن، طبع على مطابع مركز الطباعة الحديثة، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، أعيان العصر وأعوان النصر، حققه: علي أبو زيد، ونبيل أبو عمشة، ومحمد موعد، ومحمود سالم محمد، قدم له: مازن عبدالقادر المبارك، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

- نفسه:

• الوافي بالوفيات، الجزء الأول، باعتناء: هلموت ريتر، ط٢، يطلب من دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن،١٣٨١هـ-١٩٩٢م.

• الوافي بالوفيات، الجزء الثامن، باعتناء: محمد يوسف نجم، ط٢، يطلب من دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

• الوافي بالوفيات، الجزء العاشر، باعتناء: جاكلين سوبله، وعلي عمارة، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- علاء الدين بن العطار، ترجمة الإمام النووي، ضمن كتاب النووي: مختصر طبقات الفقهاء، تحقيق: عادل عبدالموجود، وعلي معوض، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

- علم الدين أيدمر المحيوي، مختار ديوانه، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١، ١٣٥٠هـ-١٩٣١م.

- العيني، بدر الدين محمود:

• عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك (١)، حققه ووضع حواشيه: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

• عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك (٢)، حققه ووضع حواشيه: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

– الفاخري، بدر الدين بكتاش، تاريخ الفاخري، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

– ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم، تاريخ ابن الفرات، المجلد السابع، حققه وضبط نصه: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٦م.

– ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر التاسع عشر، تحقيق: يونس أحمد السامرائي، المجمع الثقافي، أبو ظبي– الإمارات، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

– ابن قاضي شهبة، أحمد بن محمد عمر بن محمد، طبقات الشافعية، اعتنى بتصحيحه وعلق عليه: الحافظ عبدالعليم خان، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

– الكتبي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، الجزء العشرون، تحقيق: فيصل السامر، ونبيلة عبدالمنعم داود، دار الرشيد، بغداد،١٩٨٠م.

– نفسه، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣-١٩٧٤م.

– ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، ط١، تحقيق: أحمد عبدالوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

– مجير الدين ابن تميم، الديوان، حققه: هلال ناجي، وناظم رشيد، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

– مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، تحقيق وتعليق: نجم عبدالرحمن خلف، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

– مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين، دراسة وتحقيق: أميرة فهمي محمد دبابسة، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية.

– المقريزي، تقي الدين، إغاثة الأمة بكشف الغمة، دراسة وتحقيق: كرم حلمي فرحات، ط١، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مصر، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٧م.

– نفسه، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ–١٩٩١م.

– نفسه، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، وضع حواشيه: خليل منصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ–١٩٩٨م.

– موسى بن حسن الموصلي، البرد المُوشّى في صناعة الإنشا، تحقيق: عفاف سيد صُبْرَه، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.

– ابن نباتة، جمال الدين الفاروقي، ديوان ابن نباتة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

– ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

– نفسه، ديوان ابن الوردي، حققه وعلق عليه وجمع ملحقه: أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.

– اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة: أحمد حطيط، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

– اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى البعلبكي الحنبلي، ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيد أباد الدكن، الهند.

المراجع:

– أحمد عبدالمجيد خليفة، فن الفكاهة والسخرية عند شعراء مصر المملوكية، المكتبة الزهرية، القاهرة.

– رائد عبدالرحيم، علاء الدين الوداعي الكندي حياته وشعره وما تبقى من ديوانه، كتاب مقبول للنشر، عمادة البحث العلمي، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

– نفسه، فن الرثاء في الشعر العربي في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول، ط١، دار الرازي، عمان – الأردن، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

– شفيق محمد الرقب، دراسات اجتماعية في الأدب الأيوبي والمملوكي، ط١، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٩م.

– عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام: عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

الدوريات:

– رائد عبدالرحيم، دور العلماء والأدباء إبان الغزو المغولي في العصر المملوكي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد ١٠، السنة الخامسة، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

– رائد عبدالرحيم، ظاهرة التكسب بالشعر وتجلياتها في النقد العربي القديم، بحث مقبول للنشر في مجلة جامعة الأزهر، غزة– فلسطين.

– وئام محمد سيد، الشكوى في شعر ابن نباتة، مجلة جامعة أم القرى، عدد ١، ١٤٣٠هـ–٢٠٠٩م.

– ياسين الأيوبي، الشعر والسلطة في العصر المملوكي، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب بدمشق، عدد ٢٢، السنة السادسة، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.

الرسائل الجامعية:

– أحمد عبدالمجيد خليفة، شعر أبي الحسين الجزار المصري ٦٠١–٦٧٩هـ، جمع وتحقيق ودراسة أسلوبية نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة جنوب الوادي، ١٤١٧هـ–١٩٩٦م.

– رائد عبدالرحيم، صورة المغول في الشعر في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٧م.

– فادي خطاب، الحركة الشعرية في بلاط الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠١٠م.

– محمود حامد الجريدلي، شعر أبي الحسين الجزار دراسة فنية تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ١٩٩٠م.